أولادنا

عودة المحارب

بقلم عادل الغضبان



دار المعارف

أولادنا

٢٥

عودة المحارب

عن چورج جاليان
بقلم عادل الغضبان

الطبعة الثالثة

دار المعارف

الناشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج.م.ع.

تمهيد

عزيزى القارئ الناشئ

يَحْلُو لى أن أظنّ أنك، قبل أن تَفْتَح هذا الكتاب، قد قرأتَ فى مجموعة «أولادنا» التى تُصْدِرها دار المعارف بمصر، كتاباً آخر عنوانه «حصان طروادة» ووقفتَ منه على قصّة الحرب الطويلة الضَّرُوس المشهورة باسم «حرب طروادة».

وما من شكّ فى أن قراءة ذلك الكتاب قد جعلتك تَألَف ما دارَ بين أبطال الإغريق والطّرواديّين، من معارك عنيفة، وأحداث جِسَام، فأنت تَعْرِف إذنْ «أوذيس» الأريب الماهر ملك «إيتاكا» بطل القصّة التى يَرْوِيها لك هذا الكتاب.

والعنوان الأصيل لهذه القصّة هو «الأوذيسة» نحت من اسم «أوذيس» وأصبح عَلَماً لرحلة طويلة مشحونة بمختلف الحوادث، قام بها «أوذيس» عائداً إلى جزيرته بعد حِصار «طَروادة».

والقصّة فى أصلها الإغريقى، مَلْحَمَة شعريّة جميلة، أحْدَثُ عهداً من «الإلياذة»، تُنْسَب فى الأعمّ الأغلَب، إلى شاعرٍ

جوّال ، يُطْلِق عليه المسْمُوع المُتَواتِر اسم « أوميروس » .

وهذا الكتاب الصغير ، يَرْوِى لك يا قارئى العزيز أشْوَقَ المراحل من « الأوذيسة » ، ويجلوها لك بَيِّنَةً مُمْتِعَة ، فلعلَّه يُثِير فيك الرَّغْبَة إلى الاطِّلاع على النَّصِّ الأصلى لرائعةٍ من أجمل روائع الشعر الإغريقى القديم .



١

جزيرة صغيرة تكللها الغابات ، وتحيط بها الصخور ، وتبرز باسمة متألقة وسط الأمواج الزرق من بحر « أيونيا » . . . تلك هي « إيتاكا » وطن « أوذيس » .

ولو نظرنا إليها في المصور الجغرافي ، لرأيناها نقطة سوداء ليس إلا . . . ولكن أوسع القارات ، لا تعادلها مجداً وعظمة كتبهما لها التاريخ في صفحاته .

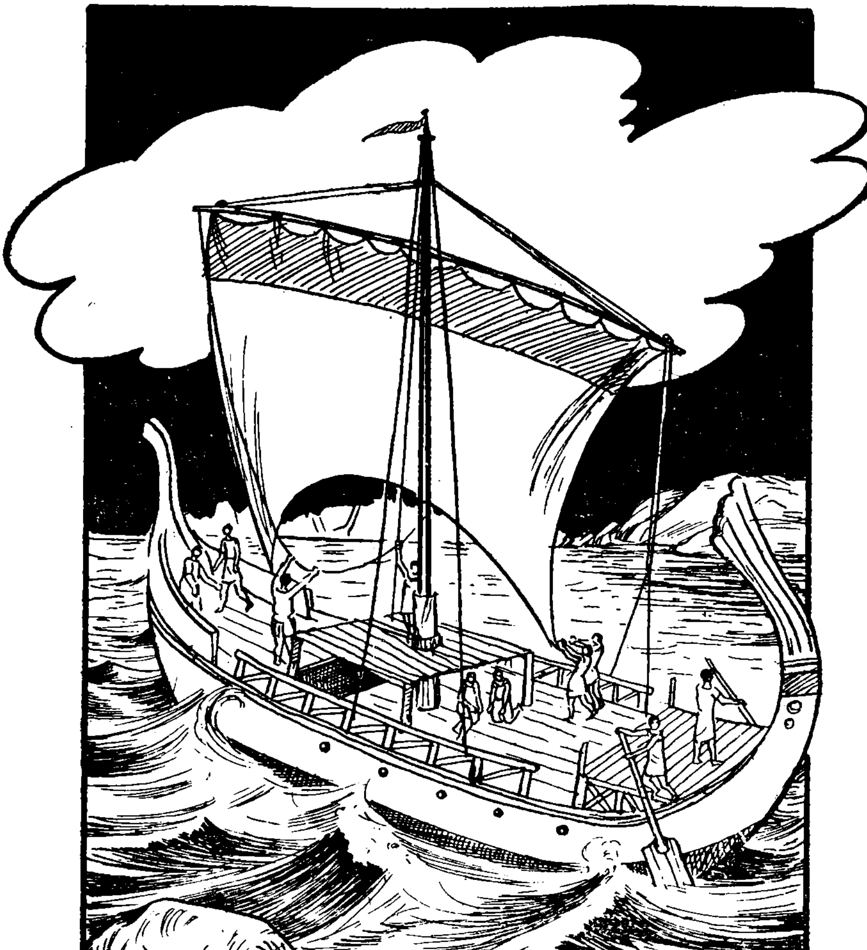
مَرَّ بها شاعر ، واستمدَّ منها الوحى والإلهام ، وتغنّى بمصايب مَلِكها وآلام مَلِكتها ، حتى أصبحت مختلف الأجيال على مرّ العصور ، ترأف « بأوذيس » وتبكى مع « پنلوپ » وتشاطر « تليماك » واسعَ آماله .

فَلْنَسْمَعْ نحن أيضًا تلك القصّة الجميلة الشائقة ، ولْنَنْغَمِرْ فى حوادثها وأحداثها .

لِنَركَبْ أولاً تلك السفينةَ الميّاسةَ زَهْواً وخُيَلاءَ ، المتهادية بأشْرِعَتها البِيض فوق البحر الأزرق ، تَمْخُرُ عُباب الماء إلى الأفُق الذهبى ، والشواطئْ البعيدة التى شَهِدت مغامرات « أوذيس » وما تعرَّضَ له من مخاطر ، وما اكتنفه من حوادثَ عجيبةٍ غريبة .

لن نذهبَ فى بَدْء الرّحلة إلى « إيتاكا » التى غاب عنها مَلِكها سَنَوات ، منذ اليوم الذى أهاب فيه الرئيس الأعلى للإغريق ببنى وطنه ، فلبَّى « أوذيس » النداء ، ومضى يحارب فى بلاد « طروادة » بشجاعته المأثورة ، وذكائه الثاقب ، وفكره الخلاّق ، حتى أصبح لا يُعْرَف إلا باسم « أوذيس » الحكيم .

على أن مغامرات « أوذيس » كثيرة متعددة . ولقد يَضِيق المُقام هنا عن أن نصف أعماله الباهرة فى حصار « طروادة » ، وأن نذكر كيف تسلَّل إلى المدينة متنكراً فى زِىّ راعٍ من الرُّعاة ، وكيف تمكَّن من معرفة أسرار الدّفاع فيها ، وكيف استطاع أن يلوذ بالفِرار ، تاركًا



وراءه آكاماً من جثث القتلى .

في الوقت الذي نعبُر فيه مضيق « الدردنيل » ، كانت الحرب قد وضعَتْ أوزارها ، وكان « أوذيس » ورجاله الأوفياء قد نقلوا إلى سفنهم الراسية في الميناء ، مجموع الأسلاب الضخمة التي غنموها ، وتأهّبوا للعودة فرحين مبتهجين .

وحين كان « أوذيس » يحثّ رفاقه على العمل ، كان قلبه يخفقُ طرباً ، كلّما فكّر في أنه عمّا قريب سوف يضمّ إلى صدره زوجته « پنلوپ» وابنه الحبيب « تلماك » وكان يقول لإخوانه :

–« لا شيءَ يعدِل الوطن أيها الصّحاب ، وليس ثمّة أحبّ منه إلى قلب الإنسان ! » .

وكان كلّما لاح له أنه يلمح في الأفق الدُّخان المتصاعد من أرض بلاده ، أقبل على رجاله يستحثّهم على الإقلاع ، ويؤنّبهم على ما يبدو له منهم من بُطْءٍ وتقاعُس ، وقلبُه شيّقٌ توّاق إلى مسقط رأسه وأحبابه .

وأنّى له ، ويا للأسف ، أن يدرى أنه سيقضى أياماً لا عددَ لها ، مملوءةً بالويلات والأهوال والأخطار قبل أن ينعمَ بالعودة إلى الوطن .

وما هى أن تتحرّك سفنه ، وتغادر شواطئ « طروادة » حتى أخذتْ هوجُ الرّياح تتلاعب بها وتدفعها إلى بلاد « السركونيين » ، فلما وصل

إليها أعجبه ما تراءى له فيها من جمال وغِنًى ، فقَرَّ قرارُه أن يُلْقِي المراسي فى سواحلها ، فنزل هو وجماعة من رجاله إلى أقرب مدينة فيها ، فأعْمَلُوا سيوفهم فى رِقاب أهليها ، وسلَبُوا ونَهَبُوا ، وجمعوا غنائمَ لا تُحْصَى .

وبينما كانوا مستسلمين إلى الطَّعام والشَّراب فى نَهَم وشَرَه ، ومن حولهم آكام الأسلاب التى غَنِمُوها ، انحدرت إليهم من أقاصى البلاد ، جماعاتٌ كثيفة من الأهلين ، كثافةَ ورق الشجر فى فصل الرّبيع ، وانقضُّوا عليهم ضَرْبًا وطَعْنًا ، يثأرون منهم لأهلهم وبلدهم ، ويصدّون المعتدين ، ويَوَدُّون لو رَمَوا الأحياء منهم فى أعماق البحر .

واستمرّت المعارك حاميةَ الوَطيس طولَ النهار بين الفريقين ، حتى رجحت عند الأصيل كفَّة العَدَد ، وكانت الغَلَبَة للمدافعين عن أوطانهم ، فاضطرَّ « أوذيس » ورفاقه إلى الانسحاب والتقهقر ، ناجين بأنفسهم إلى مراكبهم ، تاركين وراهم ستَّة ملاّحين من كل جماعة منهم جُثَثًا هامدة مبعثرة فى العراء .

وما كادوا يستريحون قليلاً من وَعْثاء القتال ، حتى هبَّت عليهم عاصفةٌ هَوْجاء ، رهيبة الأنواء ، غلّفَت فى ضَبابها الأرضَ والبحر ، ومزّقت الأشرعة ، ورنّحت السفن الثقيلة ، فأصبحت لُعْبة فى أيدى الرّياح والأمواج .

وفى فجر اليوم الثالث ، هدأت العاصفة وركدت الأمواج ، فسارع

الملاّحون إلى رفع السوارى ونشر القلوع ، وأحسوا بالأمل يتجدّد فى قلوبهم .

وعلّل « أوذيس » نفسه بالوصول بعد حينٍ قريب إلى شواطئ وطنه ، وطَرْح المراسى فى موانيه ، ولكن الأقدار حالت دون تحقيق مَرامه وتَعِلّة نفسه ، فبينما كانت سفنه تَمْخُر عُباب الماء متهاديةً مختالة ، عصفت فجأة ريحُ الشَّمال ، واصطخبت فى طيّات البحر التيارات العنيفة ، فاندفعت المراكب إلى غير وُجْهَتِها ، وسارت على غير هُدًى ، وبقيت الحال على هذا المنوال تسعة أيام لم تهْدَأ فيها الريح ، ولا استطاعت السفن إلاّ أن تسير على عكس مَسْراها .

ولم يَصْفُ الجوّ إلاّ فى اليوم العاشر ، فتمكّنت مراكب « أوذيس » من الرُّسُوّ فى شاطئ بلدٍ يُعْرَفُ أهله بآكلى « اللوتس » .

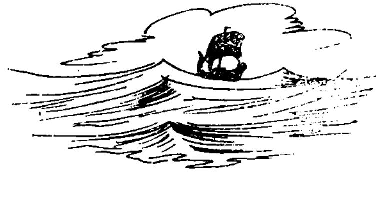
وسُكّان هذا البلد العجيب ، يتغذّوْن بزهرة « اللوتس » اللذيذة الطَّعْم ، الحُلْوة المَذاق حلاوةَ الشَّهْد ، غير أن مَنْ يذوق هذه الزهرة السّاحرة ، يَفْقِد على الفور ذاكرته ، ولا يعود يذكر شيئاً من الماضى ، ولا يفكّر فى المستقبل ، ويقضى أيّامه فى أحلام عَسْجَدية .

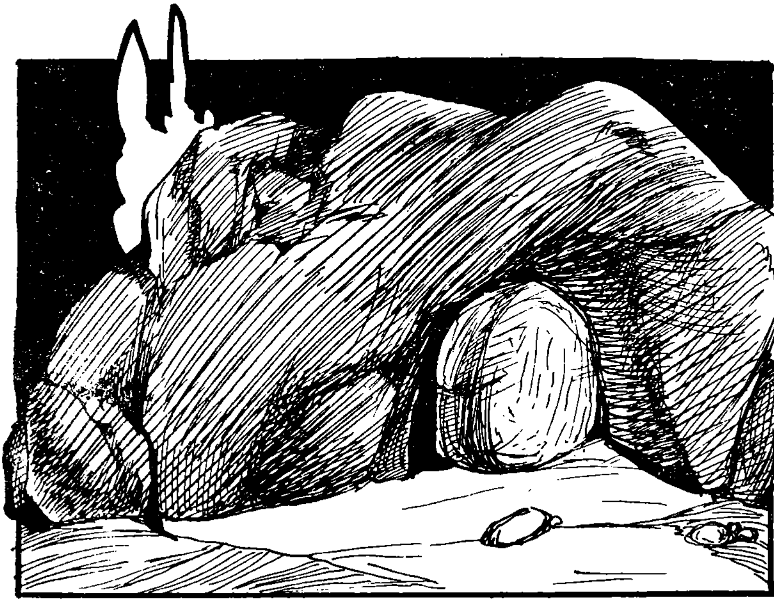
وهكذا وصل « أوذيس » ورفاقه على غير علم منهم إلى بلد النّسْيان ، فنزلوا الشاطئ يتزَوّدون منه ببعض الماء ، فعاملَهم سكّانه معاملةً رقيقةً لطيفة ، وقدّموا لهم باقاتٍ من زَهَرات « اللوتس » .

فلم يَكَدِ الملاَّحون يرفعُون تلك الزَّهَرات إلى شفاههم ، ويَنْعَمُون بلذيذ طَعْمها ، حتى غطَّى النِّسْيان على عقولهم ، فما عادوا يَذْكرون رفاقَهم ولا سُفُنَهم ؛ ولا عاد نِداءُ الوطن يَلْقَى منهم أذُناً صاغية ، فاسْتَلْقَوْا إلى العُشْب الأخضر ، وغَرِقُوا فى بحارٍ من الأحلام .

فاضطُرَّ « أوذيس » إلى أن يَقْسُوَ عليهم ويَشْتَدَّ فى معاملتهم ، حتى ينتزعَهم من غَيْبُوبَتِهم ، ويَنْتَشِلَهم من رِبْقَة الأحلام والأوهام ، فَساقَهُمْ إلى السُّفُن غيرَ عابِئٍ بتذمُّرهم وشكواهم ، وقيَّدهم إلى مَقاعِد المجاذيف ، وأمَرَ بالإقْلاع خَشْيَةَ أن يَطْعَم بقيَّة الملاَّحين من هذه الزَّهرة الفاتنة اللذيذة . فيَرُوحوا فى غيبوبةٍ حالمة تَحْجُب عنهم تَذْكار الوطن .

فأطاع الرِّجال أمْرَ « أوذيس » والأسَى يَمْلأ قلوبهم ، والدُّموع تَنْهال من مَحاجرهم . وأخذت المجاذيف تَضْرب صَفَحات الْخِضَمِّ الزَّاخر ضَرَبات قويَّة . تَنْشُر الزَّبَد على تلك الصَّفَحات ، وتبتعد بالسُّفن رويداً رُوَيْداً عن بلاد الأحلام والنِّسْيان .





٢

ظلّتْ سُفُن « أوذيس » تواصل مَجْراها فى عُرْض البحار أيّامًا كثيرة ، وتتحطّم على جوانبها الأمْواج الهادِرة الثّائرة ، حتى صَفَا لها الجوّ ، وألْقَتْ مَراسِيَها فى بلاد العَمالِقة الوحوش .

وهؤلاءِ العَمالِقَة ، قَوْمٌ على جانبٍ كبيرٍ من بَشاعة المنْظَر والدّمامة ، وليس لهم إلاّ عَيْنٌ واحدة فى وسط الجبين ، وهم أناسٌ يمتازون بالبَطْش والعُنْف ، ولا يَخْضَعُون لأىّ قانونٍ من القوانين ،

وأرْضُهم جيّدة خِصْبة ، ولكنهم لا يغْرِسُون فيها شجرة ، ولا يزرعون نَبْتَة ، ولا يَعْرِفون للفلاحة مَعْنًى من المعانى ، وكُرومُهم مع ذلك مُثْقَلَة الأغصان بعناقيد العنب ، ومروجُهم ومَراعِيهم مملوءة بقُطْعان الأنعام ، تَرْعَى فيها سارحةً مارحةً .

ويسكن هؤلاء العمالقةُ المغاورَ والكُهُوف فى قِمَم الجبال ، فتلك مملكتُهم يأمرون فيها ويَنْهَوْن ، ويَرْعوْن فيها شؤون النساء والأطفال .

وعلى مَقْرُبَةٍ من بلادهم ، جزيرةٌ حافلَة بالغابات الكثيفة ، ولكن لم يَنْزِل بها أحدٌ منهم قَطّ ، فليس لديهم زوارق ولا سُفُن يركبونها وينتقلون بها إلى تلك الجزيرة ، ليستساموا فيها إلى الصَّيْد والقَنْص ، أو ليستولوا على بعض ما يَرْعَى فيها من المِعْزَى المتوحّشة وعددُ قُطْعانها وافر كبير .

وتُعَدّ هذه الجزيرة من أجمل الجُزُر فى ذلك المحيط ، فالمُرُوج الخُضْر تَكْسُو تلالَها ، وتنحدر منها إلى شاطئ البحر ، فلو جالت فيها يد الزّارع لأنْبَتَت أوفرَ الحَصاد ، وفى الجزيرة ميناء يَصْلُح أن ترسو فيه السفن هادئة مطمئنّة ، وفى صدر الخليج منه يَنْبُوع ماءٍ صافٍ يتفجّر من مَغارة مُظلَّلة بشجر الصَّفْصاف .

فنى هذا الميناء ، ألقى « أوذيس » مراسى سفنه فى ليلة حالكة السَّواد كثيفة الضَّباب ، وإلى ساحله الجميل الناعم استلقى رِفاق « أوذيس »

ونامُوا نومًا عميقًا فى انتظار طلوع الصَّباح .

ولما انبَثَق الفجر ، هبُّوا جميعًا من رقادهم ، ونَفَضُوا عنهم سِنَةَ الكَرَى ، ومَضَوْا يجولون فى أنحاء الجزيرة ، مُعْجَبين بما يبدو لهم منها من مناظِرَ خلَّابة ومشاهدَ جميلة فتَّانة .

وما هى إلاَّ أن تَلُوح لهم قُطْعَان المِعزَى المتوحِّشة ، حتى يشُدُّوا أقواسهم ، ويُعْمِلوا فيها سهامَهم ، ويصطادوا منها عَدَداً وافراً كان عِمادَ الولائم التى أوْلَمُوها وأكلوا فيها حتى امتلأوا ، فى جوٍّ يَسُودُه الأنْس والمَرَح .

وبعد أن فَرَغُوا من الطَّعام ، واستراحوا فى أحضان تلك الطبيعة السَّاحرة ، عَلِقَت أنظارهم بالشواطئ الأخرى من بلاد العمالقة ، واسترعتْ انتباهَهم أعمدةٌ من الدُّخان تتصاعد منها سارحةً فى أجواز الفضاء، ثم طرقَتْ مسامِعَهم أصواتٌ تنحدر إليهم من وراء المَوْج ، فتبيَّنوها فإذا هى أصوات رجال وثُغاء شِياه .

فاختَلَجَ فى صدر « أوذيس » روحُ المغامرة ، فجمعَ أصحابه ، ووَقَف فيهم خطيبًا وقال لهم :

— « ابقَوْاهنا يا أصحابِى . . . أمَّا أنا فسوف أمضى بسفينتى إلى الجانب الآخر من الخليج ، ولسوف أعرف أىّ شَعْبٍ من الشعوب يَقْطُنُ هذه الأصقاع ، أمتوحّشٌ هو أم مُستَأنِس مِضْياف » .

واختار « أوذيس » اثنى عشر رجلاً من رجاله الأشِدَّاء ليَصْحَبُوه

فى رحلته ، فذهبوا كلهم يستطلعون ويستكشفون ، ونزلوا الشاطئ ومشوا قليلاً على غير هدى ، حتى وصلوا إلى كهف عميق الغور غير بعيد من الشاطئ ، تظلله أوراق الغار ، وتتناثر حوله قطع ضخمة من الحجارة وجذوع الأشجار .

وكان ذلك الكهف مسكن العملاق « پوليفيموس » وهو أشد العمالقة المتوحشين بأساً وبطشاً ، وعنفاً وقسوة ، يخشاه ويرهب جانبه أهل تلك البلاد جميعاً .

وهذا العملاق المتوحش هو ابن « نپتون » إله البحر ، وقد آثر أن يعيش فى عزلة بين عديد قطعانه .

وعندما بلغ « أوذيس » ورفاقه الكهف ودخلوه ، لم يجدوا فيه أحداً ، ذلك أن « پوليفيموس » كان قد غادره فى الفجر ، وانطلق يسوق أغنامه إلى المراعى فى قمم الجبال .

جال « أوذيس » ورفاقه فى أنحاء ذلك الكهف ، فأعجبوا أيما إعجاب بما شاهدوه فيه من تنسيق ونظام ، فهذه حظيرة الجديان ، وهذى حظيرة الحملان ، وتلك سلال تراكم فيها الجبن ، وهذه أوعية مملوءة باللبن وأخرى رصت فيها المؤن .

وبلغ الفرح بأحد رجال « أوذيس » مبلغه إزاء هذه الغنائم ، فصاح فى رفاقه قائلاً :

— « نأخذ أولاً سلال الجبن ، ثم نعود ونسوق الحملان

والجديان إلى السفُن ، ونحملها معنا إلى بلادنا العزيزة ، مواصلين السَّيْرَ فى مختلف البحار ليلَ نهار ، حتى نبلُغ هدَفنا المنْشُود » .

ولقد كان حرِيًّا « بأوذيس » أن يستجيب لِنداء هذا الرَّفيق ، فلو أنه فعل لنجا هو ورفاقُه من شدائدَ وأهوال كانت تحومُ حولهُم ، غير أن « أوذيس » ليس بالرَّجل السَّارِق الخطَّاف ، فقال لرفقائه :

ــ « أمْسِكُوا عمَّا يقول صاحِبُنا ، فلعلَّ ربَّ هذا الكهْف يعاملنا معاملة الأصدقاء ، إذا نحن غمرْناه بالتحف والهدايا ، ولا إخالُهُ يضْرِب بقواعد الضّيافة عُرْض الحائط » .

ثم انتظروا عوْدَة العِملاق ، وشغلُوا أنفسهم فى تلك الأثناء ، بإشْعال النار وتناوُلِ بعض الطَّعام .

وعاد « پوليفيموس » إلى كهْفِه عند هُبُوط المساء ،وكان يحْمِلُ رِزمة ضَخْمة من الحَطَب ، سوف يُوقِد بها النار ويُعِدّ عليها طعامَ العشاء .

فألقى بِحِمْلِه إلى الأرض ، وسُمِعَ لذلك الحِمْل عند ارتطامه بأرض الكهْف ، دَوِيٌّ شديد أثار الرُّعْب فى قلب « أوذيس » وقلوب رفاقه ، فجرَوْا يختبِئُون فى المُظْلِم من زوايا الكهْف .

وأدْخَل العِمْلاق بعد ذلك قُطْعانه إلى الكهْف ، ثم تناول فى غير ما عَناءٍ ولا مشقّة ، صَخْرةً ضَخْمة يعْجِزُ عن رَفْعِها خمسون

رجلاً من أقوى الأقوياء، وسدّ بها فتحة الكهف، ومضى يُعِدّ طعامه :
فبدأ أولاً يحلب المعزى، ويضع نصف الحليب فى سلال من القصب ليصنع منه الجبن، ويرمى بالنصف الباقى فى أوعية كبيرة ليكون شرابه عند تناول العشاء. وبعد أن فرغ من هذا كله، أوقد النار، فأضاء لهبها أرجاء الكهف، ومكّنه من أن يرى «أوذيس» ورفاقه متلبّدين وراء قطعان الغنم.

فصاح فيهم صيحة دوّت كالرعد وقال :

— « أيها الغرباء من أنتم ؟ ! ومن أين أتيتم ؟ أفأنتم تجّار شرفاء أم قرصان يقطعون البحار، وينشرون حيثما حلّوا الموت والدمار ؟ ».

فملأ ذلك الصوت الأجش فضلاً عن سحنة صاحبه البشعة الكريهة، قلوب القوم بالرعب والفزع، فلم ينبسوا ببنت شفة، ولم يجرؤ على الجواب إلا « أوذيس »، فأهاب بشجاعته وقال :

— « نحن قوم من الإغريق عائدون من "طروادة"، فساقتنا هوج الرياح وشديد العواصف إلى هذه البلاد، ولقد حاربنا منضوين إلى راية البطل العظيم "أجاممنون" ربّ المجد والسؤدد تحت قبّة السماء، ولئن كنّا جنوداً أعزّاء، إننا مع ذلك جئنا نلتمس منك أن تشملنا بترحابك وكرم ضيافتك ».

فقهقه « پوليفيموس » ضاحكاً عند سماعه هذا الكلام، وهو

العملاق القاسي القلب ، الغليظ الكبد وقال :

— « ما أنت إلا رجل مجنون أحمق ! وإنى لأسخر من قواعد الضيافة التى تتحدث عنها ولو شئت وسولت لى النفس ، لدققت عظامكم جميعاً وأنت فى الطليعة ، . . . ولكن قل لى أين تركت سفينتك ؟ أعلى مقربة من هنا أم على الجانب الآخر من الجزيرة ؟ »

لم يغب عن « أوذيس » الحاذق الفطن ، مرمى هذا الاستفهام ولا فاته أن العملاق إنما يطرح عليه هذا السؤال ليستولى على الرجال الذين تركهم يحرسون السفينة ، فسارع إلى الجواب وقال :

— إن سفينتى ، ويا للأسف ، قد ارتطمت بصخور الشاطئ وتحطمت ، وتقاذفت حطامها الأمواج ، ولقد نجوت أنا وهؤلاء الرفاق الذين تراهم معى ، وكانت نجاتنا من الموت أعجوبة الأعاجيب » .

وقبل أن يتمم « أوذيس » كلامه ، قفز العملاق الوحش قفزة هائلة ، وأمسك بملاحين اثنين من هؤلاء الملاحين المساكين وضرب برأسيهما الأرض فتحطما ، ثم أقبل يقتطع من جسميهما قطعة قطعة ، ويزدردها واحدة بعد أخرى ، كأنه سبع جائع يفترس فريسته عضواً عضواً ، وكان يدق العظم ، ويسحقه بيديه الضخمتين ، ويبتلعه واللحم ، ويشرب وراءه فى الفينة بعد الفينة ملء وطاب كبير من اللبن .

ولا تسل عن الذعر الذى استولى على « أوذيس » ورفاقه ،



وهم يَشْهَدُون هذه الوليمة الرَّهيبة الفظيعة ، شهودَ الضَّعيف العاجز المتقطّع الأنفاس ، ولم يتنفَّسوا الصُّعَداء إلاَّ بعد أن شَبِع العِمْلاق الوَحْش وارْتَوَى ، وارْتَمَى متمدِّداً على الأرض فى وسط كباشه ، فأدركه النُّعاس فنام ، وأخذ يَغِطُّ غطيطًا مُخيفًا .

وحينما أيْقَن « أوذيس » أن العِمْلاق الوَحْش قد غَرِق فى سُبات عميق ، كان أوّل ما خطر بباله أن يَسْتلَّ سيفَه ويَغْرِسَه فى أحْشاء ذلك الوَحْش ويُزْهِق روحه ، ولكنه أدرك على الفَوْر أن موت العِمْلاق لن يُنْقِذهم من مِحْنتهم ، فأنَّى لهم قوّة هذا المارد ، يحرّكون بها تلك الصخرة الهائلة التى تسُدّ فَتْحَة الكَهْف ؟ فهُمْ إذنْ مَقْضِيٌّ عليهم بالهلاك فى ذلك الكَهْف ، كما لو كانوا جِرْذانًا قد وقعَتْ فى مِصْيَدة .

وعلى مثل هذا القلق المبرِّح ، قضى «أوذيس» وأصحابه لَيْلَتَهم ، وكان كلَّما أمْعَنَ فى التَّفكير لعلَّه يجد مَخْرجًا من مأزقِهم ، بَدَتْ له فرصةُ الخلاص بعيدةَ المَنال ، بل ضَرْبًا من المُحال ، فسَلَّم أمره وأمر رجاله للقَدَر ، وانتظروا جميعًا إشراقَ الصُّبْح ، وهم على حالٍ يُرْثَى لها من العَجْز والحَيْرَة والقَلَق .

ولم تَكَدْ خُيُوط الفجر تتسرَّب إلى الكَهْف ، حتى استيقظ « پوليفيموس » من سباته ، فنهَض وتمطَّى قليلاً ، ثم أوْقَد النار ، وحَلَب نِعاجَه ، وانقضّ بعد ذلك على ملاَّحَيْن اثْنَيْن ، غيرَ

عابِىءٍ بصرَخات الذّعْر التى صرَخاها ، وكان مصيرهما بين يديه مصيرَ زميليهما التّاعِسَيْن من قبْل .

وانتهى من ازْدِراد فريستَيْه ، ومضى إلى الصَّخْرة التى تسُدّ مَدْخَل الكَهْف فأزاحَها ، وأخرَج قُطْعان غَنَمِه وخرج وراءها ، وأعاد الصَّخْرة إلى مكانِها من فَتْحَة الكَهْف فى يُسْر وسُهُولة ، كما لو كانت غطاءَ عُلْبَة من العُلَب ، ثم جمع قُطْعانه وسار بها إلى المراعى .

وفى هذه الأثناء ، كان « أوذيس » يجُول فى أنحاء الكَهْف جَوَلان وَحْشٍ سَجين فى قَفَص ، وكان لا يفتأ يفكّر فى وسيلةٍ تُنْجيه هو ورفاقه من البلاء المُحْدِق بهم .

وعلى حينِ فجأة ، وقع نظرُه على غُصْنٍ طويل ضَخْم ، كان العِمْلاق قد اقتطعه من شجرة زيتون ، ليكون له عصًا يتوكّأ عليها ، وكان هذا الغُصْن فى طولِه وضَخامته أشبَه بسارِيَة من سوارى السُّفُن التى تلْتَفّ حولها القُلوع ، فلما رآه « أوذيس » حدَّق فيه طويلاً ، ودار فى خَلَده خاطرٌ جَرِىء ، فعَمَدَ هو ورجاله إلى ذلك الغُصْن يَبْرُونه ويرقّقُونه ، ويشحَذُون طرَفه جاعلين منه سِنان رُمْح .

وبعد أن فرَغوا من عملهم هذا على النَّحْو الذى أراده « أوذيس » دون أن يَعْرِفوا له غَرَضًا ، أخذ « أوذيس » الغُصْن ، وخبّأه تحت الزِّبْل الذى يُغَطّى أرض الكَهْف .

فَعَلَ الرّجال ما أنْهىَ به « أوذيس» إليهم وهم صامتون لا يَدْرُون أىّ هدَفٍ يسعى زعيمهم إليه من هذا العمل ، ولكنهم لم يتمالكوا عند الفَراغ منه إلاّ أن يسألوا « أوذيس » قائلين :

- « ما أنت صانعٌ بهذا الغُصْن الذى أصبح مثل الرُّمْح طُولاً وسِنانًا ؟ » .

فقال « أوذيس » :

- « أنْوِى أن أستخدمه فى أمرٍ نرجومنه الخَلاص من مِحْنتنا ... أنْوِى أن أفْقَأ به عينَ العِمْلاق الوَحْش ... وأريد أن أقترع بينكم على أربعة رجال يساعدوننى فى مهمّتى ،ويُعِينوننى على إنفاذِ سِنان هذا الرُّمْح فى عين العِمْلاق » .

وأجْرَى « أوذيس » القُرْعة، فأسفرَتْ عن اختيار أربعة من أقوى رجاله وأشجعهم وأشدّهم مِراسًا للخطوب ، فشَرَح لهم « أوذيس » خطيرَ مهمّتهم ، وأبان لهم ما يجب عليهم أن يفعلوه عندما يعود العِمْلاق الوَحْش إلى كَهْفِه .

وبقى ذلك النَّفَر من الجنود ، وعلى رأسهم « أوذيس » يترقّبُون طولَ النهار رجوعَ العِمْلاق ، حتى إذا حان وقتُ الأصيل ، سَمِعُوا ثُغاء الغَنَم يقترب منهم شيئًا فشيئًا ، فعَلِموا أنّ العِمْلاق الوَحْش قد عادَ بها من المراعى ، وسوف يسُوقها عمَّا قليل إلى حَظائرها .

وسُرْعانَ ما رأوْا ربَّ الكَهْف يُزيح الصَّخْرَة الضَّخْمَة عن

مَدْخَله ، ويَحْدُو قُطْعان الغَنَم إلى داخل الكَهْف ويُعيد الصخرة إلى مَكانها ، ويَعْمد إلى مِثْل ما قام به ليلةَ أمْسِ من أعمال .

ثم يستدير ، ويا للأسف ، إلى رجلين مِمَّنْ بَقِيَ من رجال ، وينقَضُّ عليهما انقضاضَ الصَّواعِق ، وهما يرتجفان من الهَلَع ، ويرْدِيهما قتيلَيْن بين يديه ، وينكبُّ على افتراسِهما فى نَهَم وشَراهة ووحشيَّة ، كما فعل بزملائهما ليلةَ أمْسِ وفى صباح ذلك اليوم .

ولم يفْقِد « أوذيس » فى هذه المرّة رِباطَة جأشِه ، على ما فى ذلك المشْهَد من شَناعة وفَظاعة ، وعلى ما يُثِيره فى قلبه من حُزْن على صاحبَيْه اللذين دَقَّ الوَحْش عِظامَهما ، والْتَهَم لحمهما ، فاقترب من العِمْلاق وهو يَحْمِل فى يده كوبًا كبيرًا من الخشب مملوءًا بالخمر ، فقدّمه له وقال :

– « تفَضَّلْ غيرَ مأمور ، واقْبَلْ منى يا "پوليفيموس" هذا الشَّراب اللذيذ الذى جَلَبْتُه معى لأقدّمه إليك عُرْبونًا على ما نلقاه فى رِحابِك مِن كَرَم الضِّيافة ، فاشْرَبْه هنيئًا تعلَمْ أىَّ صِنْف جَيِّد مِن صنوف الخمر كانت تحمله سفينتنا » .

تناول العِمْلاق الكوب ، وأفْرَغَه فى جَوْفه بجُرْعة واحدة ، ثم أخذ يَمصُّ بطَرَف لسانه شفتيه الغليظتين ، علامة الارتياح والرِّضى ، وساغ فى حَلْقِه الشَّراب فطلب منه المزيد ، وقال يخاطب «أوذيس » :

– « املأ لى كوبا آخر من هذا الرحيق اللذيذ ! إن كروم هذه البلاد يعصر منها طيب النبيذ، ولكن شرابك هذا سلافة علوية جديرة بالآلهة الخالدة ! هاتها، هاتها ، وقل لى ما اسمك حتى أجزيك عن راحك بهدية ثمينة ! » .

فخف « أوذيس » يملأ الكوب الفارغ ، وكرر ذلك مثنى وثلاث ورباع ، حتى لعبت الخمر برأس العملاق ، وأفقده السكر رشده ، فقال له « أوذيس » :

– « إذا كنت مصرا على أن تعرف اسمى ، فإنهم يدعوننى « لا أحد » وبهذا الاسم ينادينى أبى وأمى وجميع أهلى وصحابى . . . والآن وقد عرفت اسمى ، فهل لك أن تخبرنى خبر الهدية التى ستتحفنى بها ؟ ! » .

فقال العملاق الوحش :

– « الهدية الوحيدة التى أستطيع أن أقدمها لك ، هى أن أجعلك آخر من آكلهم وأقضم عظمهم ولحمهم » .

واشتدت عليه سورة السكر ، فتلعثم لسانه ، وغمغمت كلماته ، وانطرح إلى الأرض ممددا على ظهره .

وكانت تلك اللحظة هى التى ينتظرها « أوذيس » بذاهب الصبر ، فلما رأى أن العملاق قد أصبح تحت رحمته ، تناول العصا الطويلة المسنونة ، التى كان قد أعدها وأحمى سنانها حتى احمر

وبدأ يلتهب ، فأشار حينئذ إلى رفقائه أن يقتربوا منه ، وحثّهم بكلماته وإشاراته على العمل ، نافخًا فيهم روح العزم والتصميم حتى لا تضطرّب أيديهم هلَعًا وخوْفًا ، ثم غرَزُوا كلّهم فى يد واحدة ذلك الوتِد الشبيه بالرُّمح فى عين العِمْلاق ، وأداروه مَثْنَى وثُلاثَ فى مِحْجَره الدّامى .

فزَعق العِمْلاق الوَحْش من شدّة الألم زعْقةً ارْتجّت لها أركان الكَهْف ، ووَثَب واقِفًا على قدميْه ، وانْتزَع الوَتِد من عينه المُضرَّجة بالدماء ورماه بعيداً منه ، ثم نادى بصيحاته الوحشية رِفاقه من العمالقة النائمين فى كهوفهم . فما إن يَسمعوا صرَخاته المدوّية مثل هزِيم الرَّعْد ، حتى يُقْبِلوا إليه من كل حَدَب وصَوْب ، ويَقِفُوا عند الصَّخْرة التى تسُدّ فتْحة الكَهْف سائلين :

— « ما بِكَ يا " پوليفيموس " ! وماذا أصابك ؟ ولماذا أزعجتنا بصَيْحاتك وقطعت علينا لَذّة الرُّقاد ؟ هل سُرِقَتْ قُطْعانُك ؟ هل تناولك أحد بأذًى عَنْوَةً أو خِداعًا ؟ فمن يكون اللصّ الذى سرقك ، أو العدوّ الذى آذاك ؟ »

فأجابهم « پوليفيموس » من أعماق كَهْفه ، وقال بصوتٍ حزين :

— « " لا أحد " . " لا أحد ! " » . *

فقالت العمالقة :

---

* يقصد « أوزيس » الذى سمى « نفسه لا أحد » .

ـ « ما لنا إذنْ بالأمر يدان إذا لم يُلْحِق بك السوء أحد . . .
فأنت ولا شك فريسة المرض ، اشتدت وطأته عليك فصحت ثائراً متألماً . فاصبر على دائك ، والتزم السكينة والهدوء تخفّ بُرحاؤك ، فكلنا عُرْضة للعذاب ، فتحمّله في صبر وأناة » .

ثم عادوا إلى منازلهم ، تاركين العملاق الأعمى يعْوِل ألماً ويهتز غضباً .

أمّا « أوذيس » فكان مُغتبط النفس بنجاح حيلته ، ولكن بقى عليه أن يلتمس وسيلة الخروج من ذلك الكهف الفظيع .

وبينما كان يُجيل الطرف فى زوايا الكهف ، مستسلماً إلى التفكير العميق بحثاً وراء الوسيلة المنشودة ، حط بصره على قطعان الأكباش المتزاحمة فى الحظائر ، المنتفخة المتن والجوانب بما عليها من صرف كثيف ، فلمعت فى ذهنه خاطرة أقرّها وعمد بعدها إلى الأكباش فربطها ثلاثة ثلاثة وربط كل رفيق من رفقائه تحت بطن الكبش الأوسط ، واختص نفسه بأضخم كبش فى القطيع وتعلق به ، واعتصمت يداه بصوفه الكثيف ، وانتظر طلوع النهار .

ولاحت تباشير الصباح ، وأخذت الأكباش تملأ الكهف ثغاء ، معلنة عن رغبتها فى الخروج إلى المرعى ، فمشى العملاق إلى مدخل الكهف وهو يتحسس طريقه ، وأزاح عنه الصخرة الضخمة التى تسدّه حتى يفسح للأكباش فى طريق الخروج .

وشاء أن يحولَ دون خروج « أوذيس » ورفاقه ، فجلس عند الفتْحة ، وشرع يتحسَّس كل كَبْش يمرّ به ، ولم يفْطَن ، وأنّى له أن يفْطَن ، أن الرجال الذين أذاقوه مُرّ العذاب ، مختبئون تحت الصوف الكثيف من كِباشه .

وفى آخر القطيع ، وصَل الكَبْش الضَّخْم الذى يحمل « أوذيس » متهاديًا فى مِشْيَته ، بطِيء الخُطا بما عليه من صوف غزير ، وبمن تحت بَطْنه من حِمْل ثقيل .

فتلمَّس ظهرَ الكَبْش بيديه الغليظتين ، وأجالهما فوقه مُداهِنًا مترفِّقًا ، وقال يوجّه إليه الحديث :

— « يا كَبْشِي العزيز ! ماذا جرى لك ؟ وكيفَ تكون اليوم فى ذَيْل الأكباش الخارجة إلى المَرْعى وأنت زعيمها ، وقد كنت حتى أمْسِ أوّلَها خروجًا إلى البرارى والحقول ، وأسْرَعَها إلى رَمّ العُشْب النَّضير ، وورود الماء الصافى فى الجداول والسَّواقى ؟ إنى لَعَلَى ثِقَة بأنك بقيت فى المؤخَّرة ، لتبرهن لى عن غمّك وأساك ، ولستُ أشكّ فى أنك حزين كلّ الحزن على ما أصابنى به « لا أحد » اللَّعين . . . إنه سَمَل عينى وجعلنى أتخبَّط خَبْطَ عشْواء . . . آه لو كنت تستطيع الكلام ، لكنتَ أخبرتنى أين يختبئ هذا النَّذْل الأثيم ، حتى أهْرَعَ إليه وأحطّم رأسه على صَفَحات الصّخُور مبتهجًا مسرورًا ! » .

وكَتَم « أوذيس » أنفاسَه طوالَ هذا الحديث ، وبقى جامدًا

لا يتحرك ، إلى أن اجتاز الكَبْش عَتَبَة الكَهْف ، ولَحِقَ ببقيَّة القطيع . وعند ما أيقن « أوذيس » أنه أصبح غيرَ قريب من ذلك الغار المنحوس ، تملَّص من كَبْشه ، وفكَّ أرْبطة رفقائه فوثبوا جميعاً واقفين ، وقادوا قطيع الأكباش متَّجهين به إلى سفينتهم . وكانوا من حينٍ إلى حين يلتفتون إلى الوراء ، ليتأكَّدوا من أن العِمْلاق الوَحْش لا يتبعهم ولا يتقصَّى أثرَهم . فظلوا يسيرون سَيْراً حثيثاً حتى بلغوا السفينة ، ولم يَعْترِ سيرهم أيُّ حادث من الجوادث . فاستقبلهم إخوانهم بصَيْحات الفرح والسّرور ، بعد إذ كانوا قد يئسوا من لقائهم وظنّوهم فى الهالكين .

ولما علم هؤلاء الإخوان بالمصير الفظيع الذى أصاب بعض رفاقهم ، أجْهَشُوا بالبكاء ، وانحدرت من مآقيهم الدُّموع الغِزار .

غير أنّ « أوذيس » لم يترك لهم فرصة الاستسلام إلى البكاء والنحيب ، فصاح فيهم قائلاً :

— « على رِسْلِكُمْ أيّها الإخوان . . . كَفْكِفُوا الدَّمْع وانْشُروا القلاع ، وجدُّوا فى الهرب ، فهناك أخطارٌ جسيمة لا تزال تهدّدُنا ! »

وبعد قليل كانت السفينة تمْخُر عُباب الماء ، وأصواتُ المجاذيف وهى تَضْرب وجهَ المَوْج تتوالى فى نَغَمٍ متواتِر متساوِق ، كأنه قطعة من الموسيقى ، وكثيراً ما امتزج به ثُغاء الكِباش التى استولى عليها « أوذيس » وصَحْبُه ، وكانت الغنيمة التى كلَّفَتْهم الغالى من الأثمان .

وما إنْ تبتعد السفينة من الشاطئ ، وتصبح فوق متناول القذائف من الحجارة وسواها ، لم يَسَعْ «أوذيس» فى غير ما حِقْدٍ ولا ضَغِينة إلاّ أن يُنادِى العِمْلاق الوَحْش «پوليفيموس» ويخاطبه بهذه الكلمات :

– «سَماعِ يا "پوليفيموس" ! سَماعِ أيها الوحش الضارى ! إن أعمالك الشَّنيعة تقع اليوم مَغَبَّتُها على أمِّ رأسك ، فقد حاك القَدَر لك جزاء ما قدَّمَتْ يداك . . . لقد عصفتَ بآداب الضيافة دونَ ما حَياءٍ ولا خَجَل ، بل لم تتورَّعْ عن أن تفترس ضيوفك وتلتهمهم التهامًا . . . من أجل هذا عاقبناك بأقلّ ما تستحِقّ من عِقاب ! » .

سَمِعَ العِمْلاق هذه الكلمات ، وكان جالسًا عند مدخل كهفه ، فوَثَب قائمًا ونَسِيَ آلامه ، وتلمَّس شيئًا يقع تحت يده ، فعثر بصَخْرة كأنها قِمَّة جبل ، فتناولها ورماها فى الجهة التى جاءه منها الصوت ، فسقطت فى البحر غيرَ بعيد من السفينة ، وأثارت بسقوطها جِبالاً من الأمواج كادت تلُفّ السفينة فى طيّاتها ، ولكن يَقَظة «أوذيس» ومهارة الملاّحين تغلَّبَتا على الخطر ، وابتعدتا بالسفينة إلى عُرْض البحر فنجَا رُكّابها من غضب المارد العِمْلاق .

وأراد «أوذيس» وقد أمِنَ من غائلة الموج وغضب العِمْلاق ، أن يُمْعِن فى النكاية به وأن ينكّد عليه عيشه ، فرجا منه الملاّحُون ألاّ يفعل ، ففى مقدور العِمْلاق أن يُصِيب السفينة بحَجَر ، ويكسرها

كما لو كانت قِشْرة جوزة ، فتغرّق بما فيها ومَن فيها ، ويبتلعها اليَمّ ، ولكن رجاءهم ذهب أدْراجَ الرّياح ، فوقف « أوذيس » فى مقدّمة السفينة ، واستل سيفه ولوّح به فى الفضاء ، وأخذ ينادى العِمْلاق بأعلى صوته ، ويَكيل له الشّتائم والسباب ويقول :

— « أيّها العِمْلاق الوَحْش ! لو سألك سائل عن اسم الذى سَمَلَ عينك ، وردّك أعمى ، وحرمك نعمة البَصَر ، فقل له إنه " أوذيس " ملك " إيتاكا " ! » .

فَنَاحَ العِمْلاق لدى سماعه هذا الكلام ، وزفر زَفْرةً طويلة ، وقال متوعِّداً واعداً .

— « منذ أمد بعيد تنبّأ لى أحد العَرّافين بهذا المصير الأليم ، وذكر لى أنى سأفْقِد البصر على يد رجل يُسَمّى " أوذيس " فتوقّعْت أن ألتقى ببطل شريف أبِىّ ، يُناصِبُنى العَداء وجهاً لوجه فى وَضَح النهار ، وينازلنى نِزال الأشراف ، فإذا بالفارس النّبيل الذى توقّعْتُ أن ألقاه ، يَنْحَسِر عن مَسْخ لئيم هو أنت أيّها المخادع القَذِر ، لقد عَمَدْتَ إلى الحيلة ، وهَيّأْت لى أسباب السُّكْر جُبْناً وغَدْراً ، قبل أن تجرؤ على رفع يدك فى وجهى ! ولكن اعلم أن أبى " نبتون " يستطيع إذا شاء أن يَرُدّ لى بصرى المفقود ، فارْجعْ إلىّ يا " أوذيس " أرحّبْ بك أجملَ تَرْحاب ، وأغْمُرْك بكَرَم الوِفادَة على ما تقضى به آداب الضيافة ، ولسوف أطلب من أبى أن يَرْعَى مَسيرَك إلى

مملكتك فتصل إليها سالماً معافى » .

فلم يُعِرْ « أوذيس » هذه الوعود إلاَّ أذُناً صمَّاء ، ولا وقعَتْ من نفسه موقعَ القَبُول فقال :

— « هَيْهاتَ ما تقول ! فلا " نپتون " سوف يَرُدُّ إليك البَصَر ، ولا أنا من الحُمْق والبَلَه بحيثُ أعرِّض نفسى لانتقامك » .

فرفَع العِمْلاق عندئذ عينه الجوْفاء العَمْياء إلى السَّماء ، مستنجداً بإله البحر ، مبتهلاً إليه أن ينتقم له من « أوذيس » وقال :

— « أيها الإله العظيم ! إذا أنت قرَّرت أن يعود " أوذيس " إلى بلاده ، فلا أقلَّ من أن يتعرَّض لما لا يُحْصَى من جسيم الأخطار ... اجْعَلْه يرْجع إلى قومه فقيراً مُعْدَماً ، وحيداً من الخُلاّن والأنصار ، وقدِّرْ له أن يعيشَ فى موطنه فريسةَ الأوجاع والآلام ! »

وعزَّ على العِمْلاق الوَحْش ألاّ يُحَيِّى غريمَه تحيَّة الوَداع ، فالْتقَط صَخْرةً ضخْمة ، وقذَف بها « أوذيس » فكادت تُصيب دفَّة السَّفينة ، ولكن الحظَّ السَّعيد لطَفَ بها فدفعتها الأمواج التى أثارها سقوطُ الصَّخْرة إلى شاطئ الجزيرة الأولى .

وهناك لقِيَ « أوذيس » سفُنَه الأخرى فحيَّاه ملاّحوها ، وهتَفوا له طويلاً بعد أن كانوا يائسين من رجوعه .

وبعد حين ، أُعْمِلَت السَّكاكين فى بعض خِرْفان العِمْلاق ، فكان للقوم منها وليمةٌ فاخرة ، أكلوا فيها هنيئاً وشَرِبُوا مَرِيئاً ،

ثم غلبتهم التعب والنعاس بعد مضطربهم ، فافترشوا رمال الشاطئ يقضون فيه ليلتهم .

وفتحوا أعينهم فى اليوم التالى على طلعة الفجر ، فهبوا إلى السفن ، وحلوا حبال القلوع ، وأعدوا المجاذيف الثقيلة ، وسارعوا إلى الهرب من تلك البلاد ، فرحين أنهم نجوا فيها من ميتة شنعاء ، آسفين على أن ذهب ضحيتها بعض الإخوان .

وكان « أوذيس » يشاطر رفاقه فرحتهم بالنجاة من مخالب الموت ، ولكنه كان يجهل ما تخبئه له الأقدار من أحداث ، وما سوف يقاسيه من عذاب ، قبل أن يكحل عينيه برؤية وطنه .





٣

ترك «أوذيس» ورفقاؤه بلاد العمالقة وراءهم، وجدّوا فى السَّيْر بسُفُنِهم فى أعالى البِحار، حتى وصلوا إلى جزيرةٍ غريبةٍ عائمة على وجه الماء هى مأوى «إيوليوس» إله الرياح، وله فيها قصور فَخْمة تُحيط بها أسوار عالية من الفولاذ، ويَسْكُنها هو وأبناؤه وبناته.

نزل «أوذيس» الجزيرة، فاستقبله فيها إله الرّياح استقبالاً جميلاً،

وأكرمَ وِفادَته، وأحاطه بصُنُوف الرِّعاية والتَّرحاب ، فقضى فيها شهراً كاملاً لا ينتهى فيه من وليمة إلاَّ إلى وليمة ، حتى ضاق ذرْعاً بالمآدب والولائم ، ونَفِدَ صَبْرُه ، وطال حنينه إلى وطنه ، فطلب من إله الرِّياح أن يُطْلِق سَراحه ، ويَدَعَه يتابع سَيْرَه إلى مملكته ، بعد أن صاغ له عُقودَ الثَّناء والشُّكران .

فاستجاب إله الرياح إلى رَغبته، وأهْدى له يومَ الوَداع قِرْبَةً من الجلد ، مُقْفلةً بقُفْلٍ من الفِضّة ، وقد حبس فيها جميع الرِّياح إلاّ النَّسيم العليل .

فوضع « أوذيس » القِرْبة فى قَعْر سفينته فى حَذَر وعِناية ، واستأذن من مُضيفه فى الرَّحيل .

وعلى الأثَر أمر إله الرِّياح النَّسيمَ العليل بنَفْخ أشْرِعَة السُّفُن ففَعَل ، وسارت تتهادى آمنةً مطمئنَّة على سَطْح البحر ، تُغِذُّ فى السَّيْر إلى « إيتاكا » البعيدة .

وتسلَّم « أوذيس » دَفَّة سفينته ، وقاد أسطوله إلى الهَدَف الحبيب ، وظلّ تسعة أيَّام بلياليها ساهراً على مهمَّتَه ، يأبى أن يَذُوق طَعْمَ الرُّقاد ، حتى لاحت له فى الأفق جبال « إيتاكا » ، وبدأت الأعين تتميَّزها وتتعرّف إلى أشكالها رُوَيْداً رُوَيْداً، ثم ما عتّم المتطلّعون إليها أن رَأَوْا الدُّخان يتصاعد من غاباتها ، وتمكنوا من تحديد مَعالِم مشاهدها جُمْلَةً وتفصيلاً ، فما هى إلاّ ساعات معدودات حتى يُلْقِى

العائدون مراسيَهم في شواطئها .

وكان « أوذيس » قد نال منه التعب كلَّ منال ، بعد أن ظلَّ تسع ليال ساهراً لا ينام ، فعهِدَ في القلوع إلى ملاّحيه ، سعيداً بأن يَصِل قريباً إلى وطنه بعد طول كفاح ، واستلقى عند سفح السارية يأخذ لنفسه قسطاً من الراحة ، فغلبه النعاس على أمرِه فنام نوماً عميقاً .

وانتهز رفاقُه فرصةَ رُقاده ، فأقبل بعضهم على بعضهم الآخر يتداولون ويتشاورون ، وكلّهم ساخطٌ متذمّر فكان فيما قالوه :

— « ها نحن أولاءِ نعود إلى الوطن بعد ألف عقبة وعقبة ، ونرجع إلى أهلنا فقراء مُدْقعين ، على حين أن" أوذيس " يحمل معه من " طروادة "ثروةً طائلة ، ثم إن هذه القِرْبة التي أهداها له إله الرّياح ، لا بُدَّ مملوءة بالذهب والفضة ! » .

وحدا بهم الجشع إلى استخراج القِرْبة ، فوضعوها على سطح السفينة ، وعالجوها حتى شقُّوها ، فاندفعت منها على الفَوْر الرّياح الحبيسة هائجةً هادرة ، وهبّت معها عاصفةٌ شديدة كنست البحر ، ودفعتْ بالسُّفن إلى مدًى بعيد كما لو كانت تدْفع قطعاً من القشّ .

وهال الملاّحين أن تجرُفهم الرّياح والعواصف ، وتُقْصيهم عن مشارف وطنهم المحبوب ،وكانوا قد علّلوا النفس بتقبيل تُرابه بعد طول

غياب ، فبكَوْا وانتَحبُوا وصَعّدوا الزّفرات .

وتَعالَى هديرُ الأمواج وعَصْفُ الرّياح ، فاستيقظ « أوذيس » من منامه ، وأدرك هَوْلَ الكارثة ، فخارت قواه ، واستولى عليه يأسٌ شديد، وهَمَّ بأن يُلْقِي بنفسه إلى الأمواج ، ويموت مُكَفّنا بمياه البحر ، ولكنه رَجَع إلى رُشْدِه ، وانتظر انتهاء العاصفة التى دفعت بسفنه ثانيةً إلى جزيرة « إيوليوس » .

ولشَدَّ ما دُهِش إله البحر حين رأى « أوذيس » عائداً إليه ، وعَرَقُ الخجل يتصبّب من جبينه ، فصاح فيه « إيوليوس » ، قائلا :

— « ماذا دهاك يا " أوذيس " ؟ ! لقد كنتُ أعددتُ كل الأسباب فى سبيل نجاح رِحْلتك ! »

فقال « أوذيس » :

— « إنه الخطأ الذى ارتكبه هؤلاءِ الرّفاق الجُهَلاء ! لقد دعاهم الطَّمَع والجَشَعِ إلى فتح قِرْبة الرّياح ، ظَنّا منهم أنها تحتوى على كَنْزٍ ثمين ، فأثاروا العواصف التى أعادتنا إليك ، ولكن رُحْماك أيها العظيم ،أغِثْنا ثانيةً ، ومَهِّدْ لنا سبيل الرجوع إلى بلادنا سالمين آمنين ! »

فقال إله البحر :

— « كلاّ وألف مرّة كلاّ ! لا شكَّ أنك قد اقترفت كثيراً من

الآثام والجرائم ، حتى أصبح عِقاب الآلهة يُلاحِقك حيثُ تَسير وأنَّى اتَّجَهْت ، فلا تعتمد عليَّ ، وغادِرْ جزيرتى أسْرَع ما تستطيع ! ...»

فلم يَسَع «أوذيس» إلاّ أن يُطِيع هذا الأمر الصّادر إليه ، فسار بسفنه يَضْرِب فى عُرْض البِحار وهو أسيف حزين ، وبدت المجاذيف للملاّحين بطيئةً ثقيلة وهم يَشُقُّون بها الأمواج فى عُسْرٍ وصعوبة ، وظَلُّوا على مِثْل هذه الحال ستة أيام كاملة .

وفى اليوم السابع ، وصل ذلك الأسطول إلى جزيرةٍ ذات ميناء جميل ، تُحِيط بِفُرْضَتِه العميقة صخورٌ عالية ، ويترقرق فيها الماء هادئًا ساكنًا سكونَ ماءِ البُحَيْرات .

وألْقت السفنُ مراسيها فى ذلك الميناء ، إلاّ سفينة «أوذيس» فقد أرساها بعيداً من مدخل الفُرْضَة على مَقْرُبة من صخرة عظيمة . ثم صعَّد فى صخور الميناء ليُشْرِف منها على مُنْبَسط الجزيرة ، ويقف على معالم المكان ، فلَمَح على بُعْدٍ منه أعمدةَ دُخانٍ تخرج من بعض السَّاحات ، وتتعالَى فى أجوازِ الفضاء فاختار ثلاثةً من رجاله الأشِدَّاء ، وبَعَثَهم مستكشفين مستطلعين .

نَزَل هؤلاءِ الرِّجال الثلاثة من أعالى الجبال ، وسلكوا دَرْبًا قادهم إلى سَهْلٍ فَسِيح فاجتازوه ، ووصلوا بعده إلى مدينة الْتَقَوْا عند أبوابها بفتاةٍ تَسْتَقِى من نَبْع ماءٍ زُلال ، فحَيُّوها وحَيَّتْهم ، ونَفَضَتَ لهم أخبار السُّكّان وقالت :

– « إن أبى هو ملك هذه البلاد ، فاتبعونى أوصلكم إلى قصره » .

فتبعوها ولم تساورهم أيَّة رِيبة من أمرها ، ولكنهم كادوا يخرُّون مَغْشياً عليهم من الرُّعْب والاشمئزاز ، عندما قدَّمتْهم الأميرة إلى أمِّها ، فوجدوها ربَّةً من ربّات الجحيم بَشِعة المنظر ضخمة الجُسْمان ضخامةَ جبلٍ برأسه .

وما كادت تَلْمَح القادمين إليها ، حتى استدعت زوجها فجاء مسرعاً ، فإذا هو ماردٌ وَحْش تضطّرب المفاصل عند رؤيته ، فما هى إلاّ ثوانٍ حتى انقضّ على أحد الرجال الثلاثة والتهمه حَيّاً .

فارتعدت فرائصُ الرجلين الآخرين ، وأطلقا سيقانهما للرّيح ، متّجهين إلى السُّفن ، فتبعتهما جماعة من المَرَدَة أقبلت على نِداء ملكها ، ثم ملأت بعد قليل رؤوس الجبال المحيطة بالميناء ، وأخذت تُمْطِر السُّفُن بوابل من الصّخور الضَّخمة .

وانقلبت تلك الفُرْضَة الوادعة السَّاكنة إلى مُضطَّرَبٍ من العواصف والأمواج الثائرة والزَّبَد الجوّال ، تمتزج فيها أشْلاءُ الموتى بحُطام السُّفُن ، وتملأ الفضاء أنّاتُ المُحتَضَرِين ، وكان المَرَدَة الغِلاظُ الأكباد يُصَوِّبون الحجارة وقِطَع الصُّخور إلى أجسام الملاّحين بعد تحطيم سفنهم ، ويصطادونهم كما تُصْطاد الأسماك ، ويحملونهم معهم إلى مغاورهم ليكونوا لهم طعاماً شَهِيّاً .

وطاش صَواب « أوذيس » لدى هذه المأساة الكبرى ، فضرب بسيفه

الحبل الذى يربط سفينته ، وحَضَّ الملاَّحين على الإسراع فى التجذيف فأذعنوا للأمر ، وأصبحوا بعد لَحَظات بعيدين من ذلك الميناء الرهيب الذى هلك فيه جميع إخوانهم ، وسَعِدَ « أوذيس » ومَلاَّحو سفينته بنجاتهم من الموت ، ولكن قلوبهم كانت تَتَقَّد حزنًا وأسًى على رفاقهم الهالكين .

وسارت السفينة أيامًا فى بحرٍ هادئ وجوٍّ لطيف ، حتى وصلت إلى جزيرة جميلة السَّاحل ، كأنه أُنْشِئ لاستقبال تلك السفينة الهابطة إليه ، فرَسَتْ فيه ، ونَزَل منها الملاَّحون وهم على جانبٍ عظيم من الألم والتَّعَب ، واسْتَلْقَوْا إلى رِمال الشَّاطئ ، ومكثوا يومين كاملين غائبين عن الوجود ، لا يَبْدُر منهم أىُّ دليلٍ على الحياة .

وفى صباح اليوم الثالث ، نَفَضَ « أوذيس » خُمولَه وجُمودَه ، ومضى يستكشف مجاهل الجزيرة ، فرأى وهو على قِمَّة جبل ، دُخانًا يتصاعد من بين الأشجار ، واتَّفق أن مرَّ على مَقْرُبة منه فى تلك اللحظة ، أيِّلٌ جميل خرج من إحدى الغابات ، فرماه بنُشَّابة أصابت منه مَقْتَلًا ، فجرى إليه وربَط حوافره بحَبْل من قصب ، وحَمَلَه على كَتِفَيْه ، وعاد به إلى السَّفينة وهو يَنُوءُ تحت عِبْئه .

وحين رأى رفقاؤه هذا الصَّيْد الثَّمين دبَّت الشَّجاعة فى قلوبهم ، وانتعشت صدورهم ، واستردُّوا قواهم بعد الوليمة التى أولموها على شرف ذلك الأيِّل الذَّبِيح .

وفى اليوم التالى قَسَّمَ « أوذيس » رجاله قِسْمين ، تَوَلَّى هو قيادة الفريق الأول ، وولَّى « أوريلوخوس » قيادة الفريق الثانى ، ثم اقترعوا على أىّ الفريقين يذهب لاستكشاف البلد ، فكانت المهمة من نصيب الفريق الذى يتزعَّمُهُ « أوريلوخوس » .

تَوَغَّل رجال هذا الفريق فى الغابات ، ووصلوا بعد قليلٍ إلى منزلٍ جميل مُشَيَّدٍ بالحجارة المَلْساء ، وحَدَّثْ عن دهشتهم ولا عجب ، لمَّا رأوا ذلك المنزل تحرُسُهُ جماعةٌ من الأسود وجماعة أخرى من الذّئاب المروَّضة .

هجمتْ تلك الوحوش عليهم ، فَهَمُّوا بأن يلوذوا بِأذْيال الفِرار ، غير أنها بدلاً من أن تفترسهم أقبلتْ عليهم تُداعِبُهم وتداهِنُهم كما لوكانت كلاباً صغيرة .

لم يستأنس القوم بهذه المداعبة ، ولا اطمأنُّوا إلى تلك الوحوش وهى تَثِبُ حولهم وتلاعبهم ، فساءلوا أنفسهم قائلين : تُرَى أىّ سِحْر وشَعْوَذَة نحن شهودُها ؟ ثم ما لَبِثُوا أن طَرَقَ مسامعهم صوتٌ عَذْب رقيق فَشَخَصُوا بأبصارهم إلى مَصْدَر الصوت ، فرأوا فتاةً رائعةَ الجمال ذهبية الشعر ، رَسِيلة الجدائل ، تتغنَّى وهى تَنْسج مُصَوَّراً باهر الألوان . إنها « كركى » السَّاحرة ملكة تلك الجزيرة ، فخفَّتْ إليهم وأسكتت بإشارةٍ منها الأسود والذّئاب ، ودعت هؤلاء الوافدين إلى دخول قصرها .

خشِيَ « أوريلوخوس » أن يكون وراء تلك الدَّعوة ما وراءها ، فبَقِي وحده واقفًا عند الباب ، في حين لبّى رفقاؤه الدَّعْوة دون أن يُساورهم منها شيءٌ من الحذَر ، ولا توجّسوا منها شرًّا من الشّرور ، فدخلوا القصر وجلسوا على المقاعد الوَثيرة التى عيّنتها لهم « كركى » ، ونَعِموا بأطايب ما قُدِّم لهم من طعام وشَراب

وبينما كانوا منهمكين فى تناول الحَلْوَى ، والتلذُّذ بطَعْم العَسَل ، ضربتهم « كركى » بعصاها السِّحْرِية ؛ فانقلبوا فى الحال إلى خنازير تَظْلَع على أرْبَع ، ويملأ ظهورها شعر حادّ مسنون ، فأخذ كلٌّ منها يتمسَّح بالمقاعد ، ويجرى فى الغرفة جيئةً وذُهوبًا ، ويَصْدُر عن خَطْمه نخيرُ الخنازير ، على أن السِّحْر لم يجرّدْهم من خَلَّة التفكير ، فكان لهم فكر إنسان فى جسْم حيوان .

فهَشَّت « كركى » بعَصاها عليهم ، وقادتهم إلى إسطبل الخنازير وحبستهم فيه ، ورمت إليهم بحُزْمَةٍ من لِحاء الأشجار ، يأكلونه بَدَلَ تلك الحَلْوَى المعطَّرة التى كانتْ قدَّمَتْها لهم من قبل .

وعَبَثًا انتظر « أوريلوخوس » فى هذه الأثناء عَوْدَة رِفاقه ، حتى إذا طال وقوفه عند باب القصر ، ويَئِس من رجوعهم إليه ، غادر مكانه عائداً إلى السفينة ، وكان ألمه شديداً فخانته الكلمات فى وصف رحلتهم الحزينة ، فلما علم « أوذيس » أن أبواب قصر « كركى » قد أُغْلِقَتْ على رِفاقه الأشقياء التَّاعِسين ، تناول سيفه المصنوعَ من الفولاذ ،

والمُزَرْكَش مِقْبَضُه بنجوم من الفضّة ، وأخذ معه قوسه ونُشّابه، وطلب من « أوريلوخوس » أن يقوده إلى تلك السَّاحرة ، فارتعدت فرائص « أوريلوخوس » ، وارتمى على قَدَمَيْ سيّده وقال :

— « اذهَبْ أنت إذا شئت ، ولئن ذهبتَ لتسعَيَنَّ إلى حَتْفِك، فاتركني هنا ، واعْلَمْ أن هلاكك لن يُنْقِذ أصحابنا المساكين ! »

فقال له « أوذيس » في تأفُّف واحتقار :

— « ابْقَ أنت هنا ، وكُلْ واشْرَبْ ونَمْ هادئًا وادِعًا ، أمَّا أنا فذاهِبٌ وحدى ! » .

ومضى وحده يَضْرِب في مناكب الحقول والغابات ، ويُغِذُّ السَّيْرَ في اتّجاه القصر المسحور .

ولَقِيَ في طريقه شابًّا جميلاً يحمِلُ عصًا قصيرة من الذَّهَب . . . إنه الإله « هرمس » أرسلته الآلهة إليه : وسَمِعَه يقول له :

— « إن " كركى " الشِّرِّيرة قد سَحَرَتْ رِفاقَك ومَسَخَتْهُم خنازير ، فحاذِرْ ، واعْلَمْ أنّها ستُقَدِّم لك حَلْوَى مسْحُورة ، فإذا أكلت منها ما شاء لك النَّهَمُ أن تأكل، فسوف تَمَسُّك بعَصاها السِّحريّة ، وتُحيلك إلى خِنْزِير ، وتُرْسلك تَنْخُرُ في إسْطَبْل الخنازير ، ولكن لا تَخْشَ بأسًا فأنا كفيلٌ بأن أُنْقِذك مِن شَرِّها . . . » .

ثم أعطى « أوذيس » نَبْتَةً غريبة سوداء السَّاق ، بيضاء الزَّهَر ،



سمّاها باسم « مولى » وقال :

ـ « خُذْ هذه النَّبْتَة واحملها معك فإنها ستحميك من سحر " كركى " الأسود، فإذا ضربتك " كركى " بعصاها السِّحْريَّة ، فاستَلَّ سيفك واهْجُمْ عليها كَمَنْ يُريد قتلها ، يَسْتَوْلِ عليها الفَزَع ، فتنقلب بين يديك رقيقةَ الطَّبْع لطيفةَ المَعْشَر ، ولكن احْرِصْ على أن تجعلها تُقْسِم علناً أن لن تَنْصِب لك فخًّا جديداً ، ولن تأخُذَك بِحِبالة أية مَكيدة كانت » .

وغاب « هرمس » بعد بَذْل هذه النصائح ، وتوارى وراء الأشجار ، وتابع « أوذيس » سيره إلى قصر الملكة السَّاحرة .

بَلَغَ « أوذيس » القصر ، ووقف بِبابه ، ونادى بأعْلَى صوته أصحابه ، ففُتِح البابُ على الفَوْر ، وبَدَتْ عند عَتَبَتِه « كركى » الحسناء الشِّرِّيرة ، فرحَّبَتْ « بأوذيس » وأدخلته القصر ، وعيَّنَتْ له مَقْعَداً مُزَخْرفًا بنقوشٍ من الفضّة يجلسُ عليه ، ثم قدَّمَت له كوبًا من الذهب الخالص مملوءاً بخَمْرٍ مسحورة ، ثم مَسَّتْه بعصاها القصيرة وقالت :

ـ « اذهب الآن إلى إسْطَبْل الخنازير ، واجتمعْ فيه بإخوانك » .

فاستَلَّ « أوذيس » سيفه عَمَلاً بنصيحة « هرمس » ، وهجم على « كركى » كمن يُريد أن يقتلها ، فاستَحْوَذَ الخوف على قلب « كركى » ، وارْتَمَت على قَدَمَى « أوذيس » وقالت :

— « إنك ولا شكّ البطل الذى بشّرتنى الآلهة بقدومه . . . إنك "أوذيس" الذى يستطيع دون الناس أجمعين ، أن يقاوم سِحْرى وإغرائى ، فأعِدْ سيفك إلى قِرابه ، ولنكنْ صديقين حميمين » .

فقال لها « أوذيس » :

— « كيف تريدين أن نكون صديقين حميمين ، ورِفاقى محبوسون فى إسطبل خنازيرك ؟! »

ثم حرص « أوذيس » على أن يجعل « كركى » تَعِدُ بإطلاق سَراح رفقائه ، وتضمن لهم جميعًا عَوْداً حميداً أمينًا إلى سفينتهم ، فأغْمَدَ « أوذيس » عندئذ سيفه ، وأنهض « كركى » من مُنْطَرَحِها ، فنهضت ونادت وصيفاتِها ، فأقبَلْنَ مُسْرِعات ، وشرَعْنَ يُعْدِدْن المائدة لوليمةٍ فاخرة تولمُها ربتّهنّ .

كذلك مَضَيْن يُعْدِدْن « لأوذيس » حَمّامًا يفوحُ فى جوانبه العِطْر والغَالِية . ثم ألبَسْنَه بعده رِداءً مزركشًا ومِعْطَفًا جميلاً ، وجَلَبْنَ له ماءً ممزوجاً بالطِّيب ليَغْسِل به يديه .

فجلس على مقعدٍ منقوشٍ بالفضّة ، وأخذت واحدة منهن تصُبُّ على يديه الماء منسكبًا من إبريق من الذهب .

ودُعِيَ « أوذيس » إلى المائدة وقد حَفَلَتْ بالأطايب واللّذائذ ، فأعرَضَ عنها ولم يتناول منها شيئًا ، فدُهِشت « كركى » وقالت له :

— « مالى أراك حزينًا ساكتًا ؟ ومالى أراك مُعْرِضًا عن الطّعام ؟

ألا تزال تخشى سحرى الأسود بعد إذ حلفتُ لك أن لن أمسَّك بسوء ولا أذى ؟ ! » .

فقال لها « أوذيس » .

— « كيف تطيب لى المباهج ، وكيف أقدم على الطَّعام والشَّراب ، وصحابى ما زالوا فى قبضة يدك وتحت رحمتك ، فأطلقى أوّلاً سراحهم أثق أنك ستنجزين جميع وعودك الأخرى » .

فخفّت « كركى » إلى إسطبل الخنازير ، وفتحت الباب وأخرجت رفاق « أوذيس » ثم مسّتهم بعصاها السِّحريّة ، فسقط الشعر من ظهورهم ، ووقف كلٌّ منهم على قدميه ، واستحال خطمه إلى وجه إنسان ، فما كاد هؤلاء الرّفاق يرون « أوذيس » حتى هرعوا إليه والفرح يملأ صدورهم ، وأقبلوا يحيّونه ويعانقونه رجالاً أشدّاء حسان السَّمت كالعهد بهم قبل مسخهم .

شهدت « كركى » كيف أعرب هؤلاء الرّجال عن فرحهم بلقاء رئيسهم ، فأثّر فى فؤادها المشهد ، ولم تمالك عن أن تسكب العبرات .

وشاءت أن تكون البهجة شاملةً تامّة ، فطلبت من « أوذيس » أن يذهب إلى السفينة ، ويعود مصطحباً بقيّة الرّفاق الذين ظلّوا فيها ، فجرى « أوذيس » إلى الشاطئ بخطًى خفيفة ، فلم يكد رفاقه يرونه عائداً إليهم سليماً معافًى ، حتى حيّوا عودته بالهتاف والتّهليل ، وطغت على قلوبهم فرحة ما كانت لتطغى بأوفر منها لو كانوا عادوا إلى الوطن .

وبعد أن هدأت مشاعرهم الفائرة قال لهم « أوذيس » :

– « اسْحَبُوا السفينة حتى الشاطئ ، وأفْرِغُوا حمولتها ، وضَعُوها فى هذه المغارة التى تَرَوْنها أمامكم ، وتعالَوْا معى . . إن إخوانكم لَيَتَنَعَّمُون الآن فى قصر " كركى " بكل ما لَذَّ وطاب من شَهِىِّ المآكل وسائغ الشَّراب ، فهَلُمُّوا نشاركهم فى مأدُبتهم » .

فأطاع الملاّحون دعوة « أوذيس » ، وهمُّوا بأن يطيروا إلى القصر فرحين مغتبطين ، فاستوقفهم « أوريلوخوس » وحاول أن يمنَعهم من ذلك العمل الطَّائش وقال لهم :

– « من الجنون المُطْبَق أن نستمع لهذا الجرىء الجسور ! هل نسيتم أنه هو الذى رماكم بين يدى العِمْلاق الوَحْش ؟ فلئن تبعتموه إلى قصر " كركى " لتُحوِّلَنَّكم هذه الساحرة إلى خنازير أو ذئاب أو أسود تَحْرُس قصرها » .

اغتاظ « أوذيس » من هذا الخطاب ، وأخذته سَوْرَة الغضب ، فلو لم يَحُل الملاّحون بينه وبين « أوريلوخوس » متشفِّعين له لكان دقَّ عُنُقه بضربة سيف واحدة . ثم قالوا :

– « اتركه يحرس السفينة عِقابًا له ، وسِرْ بنا فى الحال إلى قصر السِّحْر والعجائب » .

وخَجِل « أوريلوخوس » من نفسه ، فسار معهم مُطأطِئ الرأس إلى قصر « كركى » .

وسارعت وصيفات الملكة عند وصولهم إلى أن يُعْدِدْنَ لهم حمّامات ساخنة مُعَطّرة، وأخرجن لهم بعد ذلك من صناديق جميلة مصنوعة من خشب الأرْز ، ثيابًا ثمينة مُطرَّزَة بالذهب ، لبِسُوها وهم فى أوفر نعمة ومُتْعة ، ثم جلس المدعوّون جميعًا إلى المائدة ، وفتكوا بما عليها من طَيِّبات فتْكًا ذريعًا . . .

* * *

مرّ على القوم عامٌ كامل وهم رافلون بِحُلَل النَّعيم ، مُخْلِدُون إلى الراحة الكبرى حتى ضاق رفقاء « أوذيس » بهذا الفَراغ الذى يعيشون فيه ، وسَئِموا من حياتهم الرَّتيبة وإن ظلّلَتْهم بِوارِف المباهج ، فذهبوا يلْقَوْن رئيسهم ويقولون له :

— « أتَنْوِى البقاء أبَدَ العمر فى هذا المكان ؟ أفما آن لنا أن نعود إلى ديارنا ووطننا ؟ » .

وفى مساء ذلك اليوم ، أنْهَى « أوذيس » إلى « كركى » بأن رِفاقه قد استَبَدّ بهم الحَنين إلى بلادهم ، وذكّرها بما قطعتْ لهم من وعود فى هذا السبيل ، فقالت له السَّاحرة الحَسْناء :

— « لكَ ما تريد ، فإنى لن أستبقيك هنا ساعة واحدة إذا كنت لا ترْغَب فى البَقاء » .

ثم زوّدَتْه بما يجب أن يَعْلَمَه فى رِحْلته ، وأضافت قائلة :

— « على رِفاقك أن يَتَّبِعُوا نُصْحِى وإرشادى وإلاّ عرَّضوا

أنفسهم لِلْهَلاك ، أمَّا أنت يا " أوذيس " فالموت يَحُوم حولك ، فإن نجوتَ منه فلن تدخل بلدك إلاّ بعد سِلْسِلة من الكوارث ، فكن حَذراً يَقِظًا ، واستوعِبْ ما أدْلِى به إليك من نُصْحٍ واتَّبِعْه بحذافيره » .

وما هو أن يَطْلِى الفجر قِمَم الأشجار فى تلك الجزيرة المسحورة بِطِلاء الورد والذهب ، حتى استَقَلّ « أوذيس » ورِفاقه السفينة ، والغِبْطَةُ تُقِيمهم وتُقْعِدهم ، وراحوا يضرِبون بمجاذيفهم صَفَحات الموج الأزرق ، ولكن فى غير عَناء ولا مشقّة ، ذلك أن « كركى » بعثَتْ إليهم بالنسيم العليل ينفخ قلوعَهم ، وبالريح الرُّخاء ترافق سفينتهم ، فجرَتْ تتهادَى فى رِفْق ودَعَة فوق بحرٍ من اللاَّزَوَرْد .

سارت السفينة الجميلة بأشْرِعتها البِيض الشبيهة بأجنحة الطيور ، وبقيت « كركى » ذات الجدائل الذهبية تُشَيِّعها بنظراتها فَتْرَة من الزمن ، ثم عادت فى خُطًى متمهِّلة إلى قصرها المتوارى فى كثيف الغابات .





٤

كان على سفينة « أوذيسي » أن تمرّ في رحلتها على مقربة من جزيرة تسكنها عرائس البحر الحسان .

ولئن كانت وجوه هؤلاء العرائس تمتاز بالجمال السّاحر ، إن أصواتهنّ الحلوة العذبة لأشدّ سحراً وأجمل وقعاً في القلوب .

وحياة هؤلاء الحسان تفيض بهجة وحبوراً ، فهن يقضينها بين

المروج الخُضْر المزدانة بملوّن الأزهار ، والمنثورة فى جوانب الجزيرة ، ويَشْغَلْن أنفسهنّ بالغِناء والتَّغْريد وتَرْجِيع شَجِيّ الأنغام . والويل للملاّحين الذين يسمعون ألحانَهنّ الجميلة ، فإنهم لا يملكون إلا التوقُّف عن متابعة رحلتهم ، والنزول إلى اليابسة لِيَعَبُّوا بالأسْماع والقلوب من فَيْض ذلك الغِناء السَّاحر ، تُرَجِّعُه أولئك الفاتنات الماكرات . غير أنهم وياللأسف ، لا تكاد أقدامهم تطأ أرض الشَّاطئ ، حتى تستولى عليهم عرائس البحر ، وتذيقهم كأسَ المَنُون ، وتنثر عِظامهم البِيض فوق المروج والشواطئ .

ذلك هو مَصِير كلّ مَلاّح مُسْتَهْتِر يترُك جانبَ الحذَر ، ويستسلم إلى مجالى السحر والفِتْنة ، وإنه لَبِئْسَ المَصِير .

ولقد حرصت « كركى » كلّ الحِرْص على أن تحذّر « أوذيس » من الخطر العظيم الذى يتهدَّده ، وكانت قد أوصَتْه بأن يزيد من سرعة سفينته إذا ما مرّ بِنِطاق تلك الجزيرة المخيفة .

وبقيت سفينة « أوذيس » تسير الهُوَيْنا فوق سطح البحر ، وتدفعها الريح الرُّخاء حتى شاء سوءُ حظِّه أن تَسْكُن الرّيح فجأة عندما اقترب من تلك الجزيرة ، فهَبَّ يأمر رجاله بِطَيّ القُلوع ، ثم أخذ قطعةً كبيرة من الشَّمْع ولَيَّنها بيديه القويّتين ، وسَدَّ بها آذان مَلاّحيه سَدًّا مُحْكَمًا ، وطلب إليهم بعد ذلك أن يربطوه إلى السَّارية الكبرى وأوصاهم ألاّ يفكّوه منها لأىّ سبب من الأسباب ، ثم أمرهم أن يُمْسِكوا

بالمجاذيف ، ويُعْمِلوها فى جوانب الماء بكلّ ما أوتُوا من قوة ففعلوا ، واصطخب الموج تحت الضَّرَبات القويَّة تنهال عليه فى إيقاع رتيب ، وازدحم الزَّبَد الأبيض حول مُقَدَّم السفينة وهى تشُقّ صدر الماء ، وأخذت جزيرة العرائس تكبَر وتكبَر على مَدّ البَصَر ، حتى حاذت السفينة شواطئها .

وانطلقت عندئذ أصوات العرائس عَبْرَ النَّسيم العليل ، تحمل إلى ركاب السفينة الأغانى العذاب ، وقد أعربَتْ بها أولئك الجميلات الخبيثات ، عن أمانيهن قائلات :

— « اقتربْ منا يا " أوذيس " العظيم . . . قِفْ سفينتك الجميلة قليلاً ، واسمَع أناشيدنا الشَّجِيَّة ، فما من مَلاّح مرَّ على مَقْرُبَة من جزيرتنا إلا قَطَعَ سير رحلته ، ووقف يملأ سَمْعه وفؤادَه من ألحاننا الحُلْوة . . . إنها أحلَى من عسل النحل الأشقر . . . إنها تُطْرِب جوانحك وتُفْعِمها بهجةً تتجدَّد كلما ذكرتَها . . . فاستمعْ لنا فإننا سنتغنَّى بأعمالك الباهرة ، وسنشدو مُشيدات بانتصاراتك المَجيدة فى بلاد " طروادة " . . . ستكشف لك كلماتُنا حُجُبَ الغَيْب ، وستعرِف من أغانينا مايخبِّئه لك المستقبَل ، فتعال إلينا واقتربْ منَّا يا " أوذيس " الشجاع ! »

لم يستطع الملاّحون أن يسمعوا شيئًا من هذه الأنغام الرقيقة العَذْبة ، فقد كانت آذانهم مسدودة بقِطع الشمع ، ولكن « أوذيس » سَمِعها



وطرب لها وأثارت فى نفسه عواملَ الإغراء ، فأخذ يتململ فى حباله مضطربًا يائسًا ، وحاول أن يُفهِم رفاقه بإشارات من رأسه ، أن يفكّوا رباطه ، ولكن ذهبتْ محاولته أدراج الرياح فما فهموه ولا استجابوا لما يُريد ، بل إنهم لما رأوه يقوم بحركاتٍ عنيفة ، خشُوا على رباطه أن ينقطع ، فزادوه توثيقًا بحبل جديد .

واستمرّت العرائس يُغنّين ويُنْشِدْن الأناشيد ، وقد عزّ عليهنّ أن يُغْلَبْن لأوّل مرّة فى معركة الإغراء ، واستمرت السفينة كذلك ، تجرى هارعة مسرعة حتى ابتعدت مِن الجزيرة ، ولفّها الضّباب فى غلائله .

وعَمَدَ الملاّحون عندئذ إلى انتزاع قِطَع الشّمْع من آذانهم ، وجرَوْا إلى « أوذيس » يحلّون وثاقه ، فاستقبلهم راضيًا عن تمسّكهم بأوامره ونواهيه ، مغتبطًا بنجاته من سلطان عرائس البحر ومن سحرهن القتّال .

وعلى حين فجأة طرَقَ مسامعَهم وأصمَّها دوىٌّ يختلف عن أناشيد عرائس البحر ، فتذكّرَ « أوذيس » نُبوءات « كركى » ، وذكَرَ أنّها قالت له فيما قالت : « ستمرُّ بعدئذ على مَقْرُبة من الصُّخور التائهة ، وسترى الأمواج العالية الهائجة تتكسّر على جلاميد الشّواطئ ، فى حين تتعالى سُحُب الضّباب ، فتُغطّى وجهَ السماء ، وتهلكُ فى مسيرها أسرابُ الطيور ، وسترى كذلك عُباب البحر يزخرُ

بحُطام السُّفُن وجُثَث الملاّحين الذين لَقُوا حتفَهم في هذه الناحية المشؤومة » . وتبيّن « أوذيس » مصدر ذلك الدّويّ الهائل الذى سَمِعه ، فإذا هو دَوِيُّ الصُّخور العائمة المتلاطمة ، وزمجرة الأمواج ترتفع معها غمائمُ الضّباب الكثيف إلى السماء ، وإذا هذا وذاك يُسْفِر عنه قَصْفٌ مثل قَصْف الرُّعود ، ففَهِمَ أنه قد وصل إلى الصُّخور التّائهة التى تُثير الذُّعْر والرُّعْب فى قلوب الملاّحين .

وكان المشْهَد مُخيفًا مُرْعِبًا ، فترَك رِفاق «أوذيس» مجاذيفَهم ، وانكمشوا فى مقاعِدهم ، والخوفُ يملأ صدورَهم ، فهبَّ رئيسهم يَبُثّ فيهم روحَ الشجاعة ويقول :

ــ « لقد تحمَّلْنا حتى اليوم ما لا يُطاق من الشّدائد والكوارث ، وسوف نَخْرج أيضًا من هذه المِحْنة الطّارئة إذا أرْهَفْتُم إلى السَّمْع ، وأطعتمونى طاعةً عَمْياء : خُذُوا المجاذيف الطويلة ، واضْرِبُوا بها الماء فى قوّة وشجاعة ، وأنت يا مُدِير الدّفّة ، تجنَّب الصخور واندفاع الأمواج ، وامْرُقْ بالسفينة فى فِطْنة وحَذَر من بين مضايق الصُّخور ، فإذا وَعَيْتُم يا صِحابى ما أقول واستوعبتموه وعملتم به ، نَجَوْنا من هذا الخطر الجديد المُحْدِق بنا ! »

أصْغى الملاّحون إلى هذا الكلام ، فعادت الثّقة إلى قلوبهم ، وتبدّدَت مخاوفُهم ، وأقْدَمُوا على العمَل فى هَدْى ما أدْلَى به الرئيس من أوامر ، فما هى إلا فَتْرَة من الزمن ، حتى كانوا تجاوزوا

الصّخور التّائهة وتَنَفّسُوا الصُّعَداء .

ولكن سُرْعان ما تَلاشَت فرحتُهم عندما فاجأتهم عناصرُ خطرٍ جديد تهدّدهم ، وتَشْحَذُ منهم العزائم والهِمَم ، فقد لاحت لهم فى الأفُق صخرتان هائلتان ، ترتفع إحداهما فوق عالية الأمواج الهادرة ، وتكاد تَنْطَح السماء بقِمتّها المسنونة الدّاكنة ، وتبدو للعِيان صخرةً مَلْساءَ وَعْرَةَ المسْلَك ، لا يستطيع التّصْعيدَ فيها أحدٌ من البشر ، ولو أوتِى عشرين قَدَمًا وعشرين يداً ، وكان رأس قمتّها تغطّيه غَمامَةٌ سوداء ، فلا يلوح للنّاظرين حتى فى أيام الصّيْف الجميلة ، وكان فى سَفْح تلك الصّخْرة كهفٌ عَمِيق هو مَأوَى الوَحْش « سكيلا » .

وكان لهذا الوَحْش الشّنيع الكريه ، عشرة مخالب ، وستّةُ رؤوس فى كلّ منها فَكٌ فوق فكٍ . وكان وهو مُتَوارٍ فى كَهْفه المظْلم ، لا يَفْتَأ ليلَ نَهار ، يَنْبَح نِبَاحَ وَحْشِيٍّ الكلاب ، فإذا شَعَر بمرور فريسةٍ من الفرائس أكلبَ بَحْرٍ كانت أم حُوتاً من الحِيتان ، وأدْرَك أنها فى متناوَله ، خرج من الكَهْف ، ومَدّ أعناقَه السّتّة المختلفة طُولاً وقِصَراً وفَغَر أشْداقَه المُخِيفة ، وتلقّف بها الفريسة .

والويل للملاّحين الغافلين إذا غامروا بأنفسهم ، واجتازوا هذه الناحية ، فسوف يكونون لُقْمةً سائِغَة لهذا الوَحْش الفظيع ، فإنّه

ينقضّ عليهم برؤوسه الستّة ، ويَخْطَف كلُّ رأسٍ منه مَلاّحاً ، ويَدُقّ عظامه تحت الصفوف الثلاثة من أنيابه الحادّة ، ثم يزدرده لحماً وعَظْماً ، ويكون للوحش من تلك الفرائس الستّ وليمةٌ فاخرة .

أمّا الصَّخْرة الثانية ، فكانت تَشْمَخ بأنفها على الجانب الآخر من المَضيق ، وقد بسقت فى سَفْحِها شجرة تين خضراء الغصون والورق ، وتلبَّد فى أعماق الصخرة وحش آخر هو « خاريبديس » ، وكان هذا الوحش يستنشق ماء البحر ثلاثَ مرّات فى اليوم ، ثم يُخْرِجُه فى سيلٍ جارف يشبه هُوج الزَّوابع .

فإذا مرّت سفينة من السفن فى الوقت الذى يتنشق فيه الوحش ماء البحر ، غارت فى هوّة من البحر الخضَمّ ، وتمزَّقت شرَّ تمزُّق ، ولفظ الموج المنحسِر عنها آكامَ البقايا والحُطام .

ولئن كان « أوذيس » قد حدّث رفقاءه عن الأخطار الجسيمة التى ستُعترّضهم لها الصخور التائهة ، إنه لم يجرُؤ على أن يحدّثهم بشىء من أمر الوحش « سكيلا » ولا الوحش « خاريبديس » خَشْية أن يُفْقِدهم الرُّعْب شجاعتهم ورِباطَة جأشهم .

ودَنَت السَّفينة من مَخْبَأ « سكيلا » وكان « أوذيس » قد لَبِس لأْمَتَه ، وتَقَلَّد سيفه ، وأمسَك بمختلف عُدَد القتال ، وبدا شاكّ السلاح من رأسه إلى أخمص قدميه كأنه ساع إلى حَوْمَة الهَيْجاء ،

فأخذ يُجيل الطَّرْف فى مُتَبَاين الجوانب والأنحاء ، لعلّ بصره يقع على الوحْش « سكيلا » فلم يعْثُرْ له على أثر ، ذلك أن الوحْش كان متواريًا فى ظلام كهفه فاغتبط « أوذيس » أيّما اغتباط بالنّجاة من الخطر ، أمر الملاّحين بمضاعفة الجهد فى التّجْذيف ، ولم تكد السفينة تجاوز الصَّخْرة المُميتة حتى برزَتْ لها فجأةً من الكهف ستّةُ رؤوس شنيعة فاغرة الأشداق ، انقضّت فى طرْفة عيْن على السفينة وأطْبقت على ستّة ملاّحين ، فحاول هؤلاء المساكين التّاعسون أن يتخلّصُوا على غير جدْوَى من أنياب خاطفيهم وأخذوا يملأون الفضاء بصياح الرُّعْب والألم ، فما نفعت محاولتهم ، ولا أجْدَى صُراخهم ، فقد عاد بهم الوحش إلى أعماق كهْفه ، والتهمهم فى شره ونهم .

امتُقِعت وجوه زملائهم من شدّة الرُّعْب ، فانكبُّوا على التجذيف فى حمّى عارمة ، لعلّهم ينْجُون إذا استطاعوا من هجْمة ثانية يقوم بها الوحش ، فاستهدفوا فى سيْرهم السَّريع للزّوابع التى يُثيرها الوحش « خاريبديس » ، فتجاوزوها ونجَوْا من أخطارها ، غير أنهم هيْهات أن ينْسَوْا زملاءهم الذين قدّر لهم نحس الطّالع أن يكونوا فريسة للوحش « سكيلا » .

اجتازت السفية ذلك الجحيم ، وخلّف أصحابها عنده ما كان قد انْتابهم من قلق وقُنوط ، ومن ذُعْر وحُزْن ، ولشدّ ما ابتهج

« أوذيس » ورفاقه حينما لاحت لهم ، بعد طول المسير ، جزيرة باسمة ترعى فيها قطعان من الغنم ، فلما اقتربت السفينة من الجزيرة ، وسمع « أوذيس » ثغاء الغنم ، تذكر وصايا « كركى » ، وتذكر أنها قالت له : « ستصل بعد الصخرتين المميتتين إلى جزيرة جميلة ترعى فيها قطعان مقدسة هى ملك إله الشمس ، فحذار أن تمسها بسوء ، وإلا جلبت على رفاقك الأخطار والمهالك » .

ذكر « أوذيس » هذا التحذير فراح يتوسل إلى رفقائه ألا ينزلوا بهذه الجزيرة ، ثم مضى يقول لهم :

— « لنبتعد منها ما شاء لنا الابتعاد ، ولنختر مكاناً آخر ننزل به ، فالكوارث الفادحة تنتظرنا فى هذه الجزيرة » .

فقاطعه « أوريلوخوس » قائلاً :

— « آه ! ما أقوى أعصابك أيها الرجل ! لكأنها قدت من جلمد الصخر أو قاسى الحديد ! . . انظر إلى ملاحيك حملة المجاذيف تجد سواعدهم كليلة متعبة ، فضلاً عن أن الليل قد بدأ يهبط ، والبحار غير مأمونة فى حلك الظلام ، فدعنا نأخذ قسطاً من الراحة فى هذه الجزيرة ، وغداً ننشر القلوع ونسلك طريق الرجوع إلى الوطن الغالى » .

فصفق الملاحون لهذا الاقتراح ، وكلهم متعب خائر القوى ، فاضطر « أوذيس » أن ينزل عند رغباتهم فقال :

ـ « لكم ما أردتم ، ولكن عِدُونى ألا تمَسُّوا عُجول إله الشمس ، وأن تكتفوا بما عندنا فى السفينة من طعام ، فلئن عصَيْتُم أمْرِى لتَهْبِطَنَّ على رؤوسكم أفْدَحُ المصائب » .

فوَعَده الملاّحون خيراً، وقطعوا على أنفسهم العَهْد أن يَرْعَوْا وصيَّته، فقاد « أوذيس » عندئذ السفينة إلى خليج أمين يتفجَّر على مَقْرُبة من صدره يَنْبوع ماء زُلال ، فجَرَّ الملاّحون السفينة حتى رمال الشاطئ ، واستسلموا فيه إلى الراحة والاستجمام، وقَضَوْا ليلتَهم يتحدّثون عن رِفاقهم الذين التهمهم الوحش « سكيلا » ، « ويَرْثُون لحالهم ،حتى دَبّ النُّعاس إلى أجْفانهم ،وقَطَعَ سلسلة أحادِيثهم الحزينة .

وفى أثناء الليل ، هبَّت عاصفة هَوْجاء أثارت فى البحر جِبالاً من الأمواج ، تعذَّرَ معها الرحيل فى الصباح ، واستمرّت الحال على هذا المنوال مدة شهرٍ كامل، عاش الملاّحون فيه سُجَناء تلك الجزيرة لا يستطيعون عنها زِيالاً .

ومضت الأيام الأولى على ما يشتهى هؤلاءِ الرجال ، فالمُؤَن فى السفينة كانت غزيرةً وافرة ، طَعِمَ منها « أوذيس » ورفاقه ، وقَضَوْا تلك الأيام بين هنِيء عيشٍ ونعيم رُقاد ، حتى نقصَت مواردُهم ، ونَفِدَت مُؤَنُهم ، فهبُّوا يلتمسون الزّاد والطّعام من أىّ سبيل كان ، فعُنِى فريق منهم بصيد بعض السمك وجمع المحار ، وتوغّل فريق آخر فى الغابات يطارد العصافير ويصطاد ما يقع تحت أيديهم منها ، ولكن مثل ذلك

الصَّيْد الضئيل ما كان ليسُدَّ منهم خَلَّة الجوع ، فبدأ القلق يساورهم ويَنْخر جوانحهم .

واهتمَّ « أوذيس » بهذا الموقف الضَّنْك ، فتَرك ذات يوم رفاقه مستلقين إلى رمال الشاطئ ، وانتَحَى ناحيةً يفكِّر فى وسيلة يتمكَّن بها من مغادرة الجزيرة أسرَعَ ما يكون ، فغَلبه الجوع والتَّعَب ، ونام عند جِذْع شجرة وارفة الظِّلال .

وبينما كان ناعمًا بلذيذ الرُّقاد ، عَمَد « أوريلوخوس » إلى أن يشوِّش على رِفاقه أفكارَهم ، ويَبْذُر فى قلوبهم بُذورَ السُّخْط فقال :

— « أيتُّها الصِّحاب ! من الحَماقة أن نموت فريسةَ الجوع ، على حين أن طيِّب الطَّعام تحت متناوَل أيدينا ! . . . فهيَّا نَذْبَح أجملَ هذه العجول ذات القرون البرَّاقة ، ونمتِّع النفس بلحمها الشَّوِيِّ ، وغداً عندما نعود إلى " إيتاكا " نشيِّد لإله الشمس عِوَضًا عنها ، مَذْبحًا فَخْمًا نقدِّم له فيه ثمين الهدايا ، وافْرِضوا أنه ثأر لنفسه مِنَّا ، ورمانا بنَكْباء الرياح وهوج العواصف تحمل فى طيَّاتها الغَرَق والموت ، فذلك خَيْرٌ من أن يَبْقَر الجوع بطونَنا الخاوية الضَّامِرة ، ونتساقط مَوْتَى الخَوَر والهُزال ، فى جزيرةٍ ضنينة شحيحة ، لا تَرْعَى الزَّرائر ولا تُكْرِم الضَّيْف » .

أثَّر كلام « أوريلوخوس » فى نفوس سامعيه ، فهبُّوا بلا وَعْيٍ

ولا تدبُّر ، يأخذون بنصيحته ويَنْزِلون عند إغرائه ، فأمسكُوا بعَدَدٍ من أسْمَن الأنعام وذبحوه ، وأوقدوا النار وشوَوْه عليها ، وظَفِروا بعد قليل بقِطَع شِواء لذيذة ، أكلوا منها حتى امتلأت بطونهم .

وبينما كان القوم مستسلمين إلى وليمتهم الفاخرة صحا « أوذيس » من سُباته العَميق ، ومَشَى فى خُطًى مُتَّئِدة إلى رِفاقه ، فشمّ وهو متّجه إليهم رائحة الشِّواء ، فأدرك ما حَدَث ، وذكَرَ عندئذ نُبُوءات « كركى » المفجعة ، فتنهَّدَ وتوجَّع ، وتوقَّع أن يحِلّ بهم وخيمُ العواقب ، فسارع إلى رفقائه وانهال عليهم لَوْمًا وتَقْريعًا ، وعنَّفهم على عِصْيان أمره ، وأنذرهم بشَرٍّ مُسْتَطِير ، ولكن ماذا ينفع التَّنْديد والتَّعْنيف ، بعد إذ وقعت الواقعة واجْتَرَحُوا ما اجْتَرَحُوا .

ولقد صاحَبَتْ تنديدَ « أوذيس » بهم علاماتٌ غريبة ، جعلتهم يأسَفون على تهوُّرهم ورُعُونتهم ، فقد رَأوْا جلودَ الأنعام التى سَلَخُوها تزحَف على الأرض ، وشَهِدُوا قِطَع اللحم التى تُشْوَى على السَّفُّود تَشْغُو ثغاءً مكتومًا ، وسمعوا كذلك خُواراً شديداً يملأ الجوّ ، تُرَدّدُه قُطْعان لا تراها الأنظار .

بَيْدَ أن الجوع المتشبِّث ببطون هؤلاء الملاّحين ، صرَفَهم عن التَّفكير فى أمر هذه الخوارق المخيفة ، فاستَمَرُّوا يأكلون ويأكلون مُدّةَ أسبوع برأسه .

وفى اليوم السابع ، هدأت الرّياح وسكنت العواصف فجأة ، كأنما

استجابت لقُدْرة قادر ، فخُيِّل إلى « أوذيس » ورفاقه أن الفرصة قد سَنَحَتْ للرحيل ، فدفعوا السفينة إلى مياه البحر ، ونَشَرُوا القُلوع وساروا بها سيراً حَثِيثًا حتى غابت الأرض بعد قليل عن الأبصار .

وبَيْنا هم فى عُرْض البحار ، إذ لاحَتْ لهم فى أقْصَى الأفُق غمائمُ سُود ، كانت تجرى نحوهم ولم تلبث أن غطَّت وجه السماء ، ثم أعْقبتها عاصفة هَوْجاء هزَّت جوانب الجوّ ، وانقضَّت عليهم انقضاض الصَّواعق ، فتحطَّمت سارية السَّفينة بما عليها من أشْرِعَة ، وسقطت على أمّ رأس الملاّح الذى كان تحتها فصرَعَتْه ، وغارت جُثَّتُه فى تضاعيف الأمواج . ودَوَّى بعد ذلك رَعْدٌ قاصف ، تَبِعَه بَرْقٌ يَخْطَف الأبصار هَبَط على السفينة ، وأشْعَلَ فيها النيران ، فاندلعت ألسنَة اللَّهَب تَلتهم الحديد والخشَب وما تحويه السفينة ، فمالت رُوَيْداً رُوَيْداً على جانبها حتى ابتلعتها الأمواج ، وابتلعت معها الملاّحين الأشقياء ، فطَفَوْا قليلاً على سطح الماء ثم غاصُوا فى الأعماق .

أمَّا « أوذيس » فقد تمكَّن من أن يتشبَّث ببعض حُطام السفينة ، فاتَّخذه طَوْفًا له ، وقضى فيه ليلةً لَيْلاء يُصارع فيها الموج فى مشقّة وعذاب .

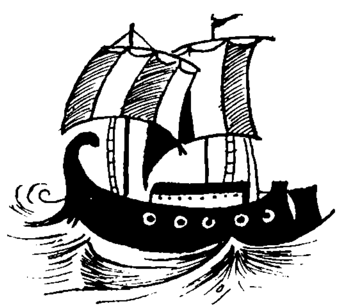
وعندما طَلَعَ الصَّباح ، تبيَّنَ ، ويا لَهَوْل ما تبيَّن ، أن الرّياح والأمواج قد استوحت سوءَ طالِعه وقذفته فى اتجاه «خار يبديس» و«سكيلا» .

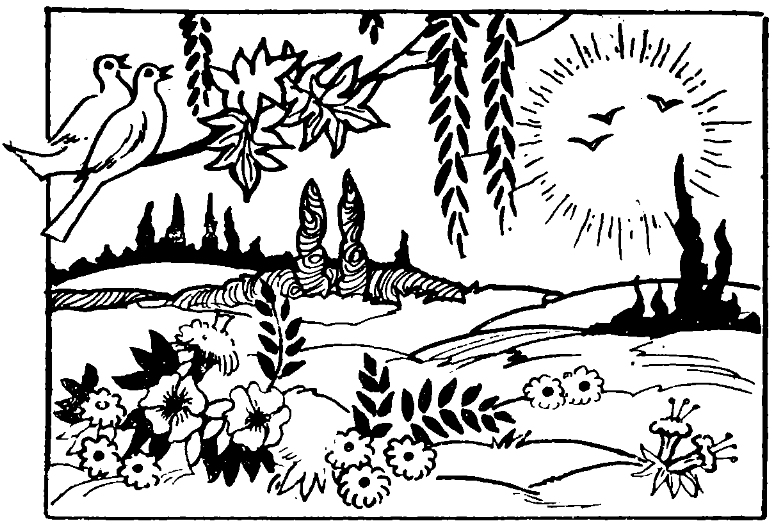
وَصَل الحريب المسكين إلى المَضيق الذى يَفْصِل الصَّخْرَتين ،

وانْحَسَرَ الماء فيه عن هُوَّة عميقة القَرار ، كاد « أوذيس » يَهْوى إلى أغْوارِها لولا أنه استجمع قواه ، وقَفَزَ إلى أغصان شجرة التين النَّامية عند سَفْح الصخرة فوق كهف « خاريبديس » وتعلَّق بها كما يتعلَّق الوَطْوَاط بعَمُودٍ من الخشَب .

ولما عادت المياه إلى مُسْتواها الأول ، وبَرَزَ على سطحها الطَّوْف الذى كان « أوذيس » يستخدمه ، قفز هذا إلى البحر ، وسَبَحَ مسافةً قصيرة حتى أدرك الطَّوْف فركبه ، وأخذ يُجَدِّف بذراعيه ويَمْخُرُ بطَوْفه عُباب الماء حتى استطاع أن يبتعد من ذلك المكان الرهيب .

وبقى « أوذيس » تسعة أيام طويلة ، تتقاذفه الأمواج ليلَ نهار ، إلى آن رَمتْه هو وطَوْفَه عند شاطئ جزيرة من الجُزُر ، متهالك القُوَى خائرَ النفس ، فاستلقى إلى الرّمال كمن يريد ، وقد نجا من الغرق ، أن يَلْفِظ أنفاسَه فوق اليابسة .





٥

سقط « أوذيس » على تلك الجزيرة فى ليل مشحون بالعواصف، فبدت لعينيه قاتمة كئيبة ، ولكن ما إن طلعت الشمس فى صباح اليوم التالى، حتى تبدلت الحال فى نظره ، وتغيرت الصورة .

فالبحر الذى كان ليلة أمس داكن اللون مخيف الزئير ، لاح له تحت أشعة الفجر ولألاء الصباح ، جميل اللون تضرب زرقته إلى لون البنفسج ، .وحيثما أجال طرفه فى أنحاء الجزيرة ، بدت له

المروج الخُضْر مُرَصَّعة بباقات كثيفة من البنفسج النَّضير، فقرَّتْ عينُه وابتهجت نفسه بهذا المنظر الخلاَّب السَّاحر . . . ولم تكن هذه الجزيرة إلا مملكة الرّبة «كالبسو» ذات الشعر الذّهبيّ الوهَّاج .

وارتاح «أوذيس» بدَنًا وفِكْراً، فراح يتوغَّل فى أقاصى الجزيرة، ويَضْرِب فى مناكِب أنحائها حتى وَصَل إلى كَهْف عميق الغَوْر تَحِفُّ به سلسلة من شجر الحَوْر والصَّفْصاف أوَتْ إلى غصونها آلافٌ مؤلَّفة من منوّع الطيور، فجاورَ البوم فيها العُقْبان، وتساوق فيها تغريد البلابل وهَديل الحَمام .

وكان إلى جوار ذلك الكَهْف، أربعة ينابيع يَنْبَثِق الماء منها زُلالاً صافيًا صفاءَ البلَّوْر، ويجرى فى خرير مُطْرِب هادِئ، وقد ظلَّلَتْه سَماوَةٌ من الدَّوالى المُثْقلة بعناقيدَ من حبَّات الذهب. هذا وقد عَبِق الجَوّ فى ذلك الصباح المُشْرق بأريجِ عِطْرٍ مُسْكِر، ينبعث من نار تؤججها عِيدانٌ من خشب الصَّنْدَل وشجر الأَرْز .

وحين بَلَغ «أوذيس» الكَهْف، وقَع نظره على امرأة بارعة الجمال، جالسة عند عتَبته، وقد ارتدت ثوبًا أنيقًا برّاقًا يشُدُّه إلى وسطها حِزامٌ من الذّهب، وكان بين يديها نسيجٌ تَنْسِجُه بمَكُّوك من العَسْجَد الخالص، وهى تُغَنّى وتُنْشِد أعْذَب الأناشيد وأشْجاها . . . إنها «كالبسو» الرّبة التى يخشاها البشر .

رحَّبَتْ «كالبسو» بالزّائر الوافِد أجملَ ترحيب، واستقبلته

أحسنَ استقبال، فأيقن « أوذيس » بعد تلك الحفاوة البالغة أنه أمينٌ على نفسه من شرّها وسوءِ مكرِها ، وزاد هذا الاعتقاد رسوخًا في ذهنه، حين رآها تحفُّه ببالغ العناية ، وتبدّد من جوانحه الضعف والتعب ، وتعيد إليه عنفوان قوّته وبأسه .

على أنه ، على ما غمرته به من ثمين الهدايا والألطاف ، وعلى ما كحّل به الطرف من جمال الرّياض وبسمة الحقول يموج فيها البنفسج ، ويتألّق الزّهر والرّيحان ، بقيَ أليفَ الهمّ والأسى ، تصطرع في فؤاده عوامل الأشجان . . . ذلك أنه في حقيقة الأمر كان سجينَ « كالبسو » .

وكثيراً ما قالت له تلك الربّة الجميلة الفاتنة :

— « ابقَ عندى ، وعِشْ معى ، لا تعرِف الشيخوخة ولا يُدْرِكك الموت » .

ولكن نوازعَ الحنين إلى وطنه ، كانت تنخُرُ فؤادَه ، فكان يذهب فى كل يوم إلى الشاطئ ، ويجلس على أرضه ، ويُطيل التحديق فى الأفق ، وهو يفكّر فى وطنه ، ويحلُم بالرّجوع إلى شواطئه وصخوره ، إلى أرضه وأرجائه ، ويحنّ مشتاقًا إلى بيته حيثُ تنتظره زوجته « پنلوب » ، ولكمْ ودّ لو يشترى لُقْياها بعمره كله . غير أنه سرْعان ما تضمحلّ فى خاطره الأوهام والأحلام ، ويصطدم بحقائق الحال ، فينهض عائداً فى خطًى وئيدة إلى الكهف الذى

حبَسَتْه فيه «كاليبسو» منذ ثمانية أعوامٍ طِوال، تحت قاهرِ سُلْطانها.

ولئن لم تقارب مصايبه الشِّداد من نهايتها، لقد كان السبب حِقْد «نبتون» إله البحر عليه، فقد أراد أن يثْأر منه وأن يَكيل له صارمَ العِقاب ردًّا على ما اقترفه من تعذيب ابنه «بوليفيموس» ذى العين الواحدة. ولكن حسن الحظّ لم يتخلّ عن «أوذيس» ذلك أن الرّبَّة «مينرفا» ذات العينين الزّرْقاويْن كانت تحميه وترعاه، وتُخْلِص له الإخلاص كلَّه.

عزّ عليها أن ترَى البطل يُهْرَعُ إلى الشاطئ ويستسلم فيه إلى البكاء والعَويل، فأثّرت فى فؤادها عبَراته ونشيجُه، وكانت تعْلَم أيضًا ما يستعر فى قلب «بنلوب» و«تليماك» من لَواعِج الحزن والألم، شوقًا إلى «أوذيس» وانتظاراً لعودته بعد غِيابه المَديد الطَّويل.

فذهبت تَلْقَى الآلهة، وتلتمس منهم أن يعينوا «أوذيس» على الرّجوع إلى مملكته. وانتهزت فرصة غِياب الإله «نبتون» وكان قد قام برِحْلة طويلة، فاستدرّت شَفَقة الآلهة على «أوذيس»، وقصّت عليهم ما نُكِبَ به البطل من أحداث مُفْجِعة، وروَتْ لهم ما يَجيشُ فى صدره من همٍّ مُقْعِدٍ مُقيم، وما يخالجه من شوقٍ إلى بلاده، وحَنينٍ إلى رؤية الدُّخان الأزْرَق يتصاعَدُ خفيفًا



الْجَناح فوق الغابات ضاربًا فى أجواز الفضاء .

فَرِثَى الآلهة لحال البطل ، وأخذتهم الشَّفَقَة عليه ، فنادَوْا رسولَهم الإله « هرمس » وأوفدوه إلى « كالبسو » . وسفيرُهم هذا مشهور بخُطُواته السَّريعة ، يعتمدون عليه فى عاجل المَهامّ . فانتعل حذاءَه الذَّهَبِيّ الذى لا يَبْلَى ، والذى يستطيع به أن يَجُوب الأرض ويجتاز البحار ، وتناوَلَ عَصاه السِّحْرِيَّة التى تمكِّنه من أن يُغْرِق الناس فى سُبات عَميق ، وطار مبعوث الآلهة إلى جزيرة « كالبسو » خفيفًا سريعًا ، يُلِمُّ بالمسافات الشاسعة إلمامًا رَفِيقًا فى عَدْوٍ يُشْبِه سفيفَ الطيور فوق زاخِر الأمواج .

بَلَغَ الجزيرة المنشودة ، واجتاز الحقول والرِّياض المُفْعَمة بالزَّهر والرَّيْحان ، حتى وصل إلى الكهف الذى تُقِيم فيه الرَّبة « كالبسو » فلم يَعْثُرْ فيه على « أوذيس » وكان قد ذهب على عادته إلى الشاطئ ، يُطْلِق فيه لعَبَراته العِنان ، فتنحدر من مآقيه فى سَيْلٍ يُبَلِّل الرِّمال .

وكانت الرَّبَّة « كالبسو » ذات الضفائر الشُّقْر منهمكةً فى نَسْجِ وشاحٍ بِمكُّوكها الذَّهبىّ ، وهى تُغَنِّى جميلَ الأغانى ، فلما رأت « هرمس » مقبلاً عليها ، خَفَّت إلى استقباله ، وقدَّمت له لذيذَ الطَّعام وسائغَ الشَّراب ، ثم سألته عن الغَرَض من زيارته .

فأنْهَى « هرمس » إليها بقَرار الآلهة ، فَهُمْ يأمرونها بأن تُطْلِق

سَرَاح « أوذيس » وتَدَعَه يرحل عنها عائداً إلى وطنه .

فصاحت « كالبسو » الجميلة قائلة :

— « ما أقْسَاكم أيها الآلهة وما أشَدَّ غَيْرَتَكم ! أنا التى أنقذتُ "أوذيس" حين كان مُتَشَبِّثًا بحُطامٍ يتراقص به فوق هادِرِ الأمواج . . . أنا التى قادته إلى هنا واحتفَتْ به وغَمَرَتْه بالعطف والحَنان . . . فلماذا تريدون أن تنتزعوه منّى ؟ وكيفما كان الأمر فكيف أستطيع أن أعِيده إلى بَلَدِه ولا سُفُنَ عندى ولا مَلاَّحين ؟ ! » .

فقال لها « هرمس » :

— « عليك أن تُطِيعى أمرَ الآلهة ، وإلاّ تحمَّلْت من غضبهم شديد العَذاب » .

قال «هرمس » هذا ولم يَزِدْ ، ثم طار فوق الرّياض المزدهرة ، وحَلَّق فوقَ البحر الأزرق ، وتوارَى فى طَبَقات الجوّ .

وسارت « كالبسو » إلى الشَّاطئ بقلبٍ حزينٍ أليم ، ووضعت يَدَها فى رِفْقٍ وحَنان فوق كَتِف «أوذيس» ، وكان لا يزال يُجْهِش بالبُكاء وينتحب ، وقالت له :

— «كَفْكِفْ دموعَك أيها المَنْفِىُّ التَّاعِس ، فقد آليتُ أن أعِيدَك إلى وطنك ، فانْهَضْ واقْطَعْ بعضَ الشَّجر ، واصْنَعْ منه العَوارِضَ والرَّوافِد ، واجْمَعْها فى طَوْفٍ كبير ، وغَطِّه بألواحِ الخشب على غِرار جِسْرِ سفينة ، فإذا انتهيتَ من عملك ، وضعتُ لك

فيه الماءَ والزّاد ، وأطلقت من حولك نَسيماً عليلاً تَصِل به إلى بلدك آمناً مُطْمئِناً . . . تلك هي إرادةُ الآلهة ، ولا بُدَّ لي أن أخْضَعَ لسُلْطان فوق سُلْطاني » .

أصْغَى « أوذيس » إلى حديث « كالبسو » واستوعب كل كلمةٍ من كلماتِها ، فلم يُصَدّق أذنيه فقال لها :

— « لا شكّ أنك تُبَيِّتين لي أمراً إدا ، وتنوين بي شَرًّا جعلك تطلبين إليّ أن أجتاز البحر الواسع ، على طَوْفٍ صغير ، فلن أركب هذا الطَّوْفَ قبل أن تُقْسِمي بأغْلَظ الأيْمانَ ، أنك لا تَسْعَيْن إلى هَلاكي » .

فلم يَسَعْ « كالبسو » إلاّ أن تبتسم لما أبداه « أوذيس » من ارتياب وحَذَر ، فقالت له :

— « لا تَخَفْ ولا تَخْشَ بأساً ، فلست أنْوِي لك إلاّ الخير كلّ الخير ، ولا أنا على ما تعتقده فيَّ من غلَظ كَبِد وقَساوة قلب ، وإني لأعِدُك بأن أبْذُل في سبيلك كلَّ ما هو في مَقْدُوري حتى أُعيدَك إلى وطنَك آمناً غانماً » .

ثم قدّمتْ له فأساً وبعض الأدوات الأخرى ، وقادَتْه إلى غابةٍ من الغابات حافلةٍ بجميلِ الشجر والدَّوْح ، ما بين صَفْصافٍ وحَوْرٍ وصَنَوْبَر .

فأقْبَل « أوذيس » على العَمَل فَرِحاً مُبْتهجاً ، وقطع بفأسه

الفولاذيَّة عشرينَ شجرةً ضخمة ، وعكف يُشذّب أغصانها وجذوعها ، وينحت منها القطع اللازمة ، ثم استقام له هيكلُ الطَّوْف فراح يجمعُ أطرافه ، ويَصِلُ بينها بمساميرَ قويَّة من الخشب ، وجاءته « كالبسو » بعد ذلك بلفّة من القماش فصّل منها ما يحتاج إليه من أشْرِعة ، وانتهى من صُنْع مَرْكَبه في أربعة أيام ، ثم دفعه إلى البحر على بكَرٍ من الخشب .

وفي اليوم الخامس جاءته « كالبسو » بالوافر من الزّاد والمؤَن : فمن أكياس قمح ، إلى دِنان خمْر ، إلى ما لا يُحصَى من لذيذ الطعام والحلْوَى ، مما يُحِبّ ويُؤْثِر ، ثم ودّعته وداعًا رقيقًا ، وبعثت إليه بنسيم عليل ينفُخ أشْرِعة المركب ، فكان « أوذيس » أسْعدَ السُّعَداء بنجاته من رِبْقة أسْرِه الطويل ، وبرحيله عن تلك الجزيرة المسحورة .

وأرشدته « كالبسو » إلى النجوم التي يجب عليه أن يهتدي بها في سُرَاه ، فوَعَى في صدره إرشادها ، وآلَى على نفسه ألاّ ينساه ، وبعد ثمانية عشر يومًا من رحلة موفّقة سعيدة فوق العُباب ، لاحت له الأرضُ ، وكانت جزيرة « الفياكيين » ، وبرزَتْ لعينيه في الأفُق كأنها تُرْسٌ فوق صدر البحر .

وحدّث عن غِبْطة « أوذيس » ولا حرَج عندما رأى هذه الجزيرة التي يعرِفُ أنَّها قريبةٌ جدًّا من مملكته ، فظنّ أنه قد بلَغ خاتمة

المـتطاف من متاعبه وأرزائه . ولكن يشاء عاثر حظه أن يمر به فى تلك اللحظة « نبتون » عائداً من بعيد سفره ، فلما رأى مركب « أوذيس » يختال متهاديا فوق عباب الماء فى رفق وهوادة ؛ قطب إله البحر حاجبيه وتملكه غضب شديد وقال فى نفسه :

— « ماذا أرى ؟! لعل الآلهة قد اغتنموا فرصة غيابى فأعانوا " أوذيس " على الرجوع إلى وطنه ! ولعل " أوذيس " يعتقد الآن أنه نجا من قبضتى ! ولكن لا ، فمملكته منه قريبة الشقة بعيدة المنال » .

فشرع إله البحر يجمع متفرق السحب فتراكمت طبقة فوق طبقة ، وأخذ يثير الأمواج من أعماق البحار ، فانتشر على الأثر ضباب كثيف داكن ، غطى وجه الأرض وسطح المياه ، وأذعنت زعازع الرياح لأمره فهبت وعصفت ، وهاج معها البحر وارتفعت أمواجه جبالا فوق جبال ، وامتزج هزيم الرعد بهدير الموج فسمع لهما دوى يصم الآذان ويزلزل الأطواد ، وعلى الجملة كانت العواصف فى أوجها .

واغتم « أوذيس » لهذه الحال وانخلع فؤاده ، واستولى عليه يأس ما بعده يأس فقال :

— « ويلى أنا الشقى ! ليتنى مت عند أسوار " طروادة " ، إذن لمت ميتة جندى سقط فى المعركة ! » .

وبينما هو يحدث نفسه بمثل هذا الحديث ، صفعت طوفه موجة ضخمة انتزعت الدفة من يده ، وحطمت السارية ومزقت الشراع ، وألقت بربّ الطوف في اليم .

دفعه ثقل ثيابه إلى الأعماق ، ثم عاد يطفو على سطح البحر ، وقطرات الماء تتصبب من وجهه ، ولكنه لم يفقد رباطة جأشه ، فما هي إلا بعض ضربات تكيلها ذراعاه القويتان لمتدفق الموج ، حتى يقترب من الطوف ويقفز إلى سطحه .

واستمرت الأمواج تتقاذف الطوف كريشة في مهب الرياح ، وتلعب به ما شاء لها اللعب ، و « أوذيس » مغلوب على أمره معيا ، رازح تحت وطأة إله البحر وانتقامه ، حتى كان منظره يثير الرأفة والشفقة ، فرثت لحاله عروس من عرائس البحر ، واندفعت خارجة من وسط الأمواج ، كأنها طائر أبيض من طيور الماء ، وجاءت تحط على طوفه وتقول له :

— « أيها البطل الشجاع ! لا تيأس ولا تتخاذل ، فلن يرسلك إله البحر ! استمع لي واستوعب نصائحي تنج وتسلم . . . اخلع ملابسك التي أثقلتها المياه ، واترك طوفك ، واسبح إلى الأرض في عزم وقوة ، وخذ وشاحي وتحزم به ، فإنه يقيك الغوائل والهلاك ، فإذا لمست الأرض فاطرحه وراءك دون أن تدير رأسك » .

وشفعت عروس البحر القول بالعمل ، فسلمته وشاحها ، ثم

غاصت فى الماء ، وانطبقت الأمواج عليها بعد انفراج .

ولفرط مامُنِيَ به « أوذيس » من كوارث ، كان فى حيرة من أمر هذى العروس ، أيثق بها ويتبع نصائحها ، ويكبر لها ما أبدته نحوه من عطف ومروءة ، أم يضرب صفحًا عن عوارفها ، ويتلقاها بالحيطة والحذر ، وبقى مترددًا حائرًا حتى حزم أمره ، وقال يخاطب نفسه :

— « إن الآلهة تتآمر علىّ وتسعى إلى هلاكى ، فلن أطيع إذن وصايا عروس البحر هذه ، وسأبقى راكبًا طوفى ما دامت عوارضه وألواحه متينة متماسكة ، فإذا حطمتها الأمواج وبعثرتها ، ألقيت بنفسى إلى الماء سابحًا ما تمكنت من السباحة ، فإما سلمت وإما هلكت » .

وفى هذه اللحظة أثار الإله « نبتون » موجة أقوى وأعنف مما سبقها ، ووجهها إلى الطوف ، فعصفت به ، وحطمت ألواحه وعوارضه ، وبعثرتها فى أنحاء المياه ، فأمسك « أوذيس » بعارضة منها ، وخلع ملابسه المبللة بالماء ، وتحزم بوشاح عروس البحر ، ثم ترك العارضة وأخذ يسبح بعنف وقوة .

فنظر إليه إله البحر نظرة احتقار وازدراء وقال له :

— « ليس لك إلا أن تهيم الآن على وجهك عبر الأمواج الصاخبة ، إلى أن تلقى من يغيثك فى شدتك ! » .

ثم ألْهَبَ بسوطه الطويل مَتْنَ جوادِه البحرى ذى العُرْف الأبيض ، واتَّجَه إلى مَقَرّه البعيد فى أعماق البحر ، تاركًا « أوذيس » تحت رَحْمَة الأمواج .

وأقبلتْ بعد ذلك رَبَّة الحكمة « مينرڤا » صديقة « أوذيس » فهالها أن تراه يُصارع الأمواج وتصارِعه . وعزمَتْ أن تُنْقِذه من محْنَته ، فأمرت جميع الرّياح إلاّ ريح الشّمال أن تكفّ عن الهُبوب ، وأنْهت إلى هذه الريح أن تدفع « أوذيس » دَفْعًا سريعًا إلى أرض « الفياكيّين » . فقضى « أوذيس » يومين كاملين محمولا على يد الأمواج المتلاطمة ، حتى إذا طلَع فجرُ اليوم الثالث ، هدأت الرّيح الرُّخاء ، وسَكَنَ الموج ، ولاحت الأرض قريبةً كلَّ القُرْب .

وكاد قلب « أوذيس » يطير شَعاعًا من غمرة الفرح ووطأة الحبور ، فسبَح جاهداً منتعشًا . وكان كلما طوَى فى سِباحته مسافةً من المسافات ، وأصبح يميّز أشجار السَّاحل ، ازداد نشاطًا وأيْقَنَ أنه واصلٌ عمَّا قريب إلى غايته .

غير أنه سُرْعانَ ما انقلبت فرحته إلى يأسٍ قاتل ، عندما طرَقَ مِسْمَعه هديرُ الأمواج وهى تتكسَّر على صخور السَّاحل ، ويُسْمَع لها قَصْفٌ أين منه قَصْفُ الرُّعود ، فأجال الطَّرْف فى طُول السَّاحل ، فلم يرَ إلا صُخوراً ضَخْمة يمزقها الموج ويسيل من ثناياها لُعابُ الماء ، فلا فُرْصَة هناك ولا ملجأ ، ولا شاطئ

يَقِي الجزيرة من هَجَمات الأمواج وضَرَبات الصخور العائمة .

فتنهّد « أوذيس » من أعماق صدره ، واستَحْوذَ عليه حزن لا يُوصَف ، وقال فى نفسه :

— « ها أنا ذا على مَقْرُبَة من الأرض ، ولا أمل لى فى أن أهْبِطَ إليها ، وأنجو من الموت الأزرق الذى يَحُوم حولى ، فلو حاولت أن أنزِل بها لمزّقَتْنِي الأمواج على هذه الصخور المسنونة ، ولو سبَحْتُ على طول السَّاحل لعَلِّي أجد فيه خليجًا أمينًا ، لجرفنى التَّيار وأقصانى عن الأرض ، وربما بَعَثَ إلىّ الإله « نبتون » بوحش من وحوش البحار يفترسنى ويَدُقّ عظامى » .

وبينما كان يداور فكرَه حائراً فى أمره ، صفعته موجةٌ ضَخْمة ، وألْقَتْه بين سِلْسِلة من الصُّخور العائمة ، ولولا الرَّبَّة « مينرڤا » لتهشّمت عِظامه ، وفارقت روحُه جسدَه المُشْخَنَ بالجراح ، فقد أوحَتْ إليه حين حمَلَتْه الموجة العارمة ، بأن يتعلَّق بصخرة من تلك الصُّخور ويتشبَّث بها ففعل ، ولكن الموجة فى ارتدادها حملت عليه ثانيةً ، وانتزعته من الصخرة ، ورمَتْ به فى ثَبَج البحر .

غاص المِسْكين فى الماء ، ووصل إلى الأعماق ، وكاد يموت غَرَقًا لولا أن هُرِعَت الرَّبَّة « مينرڤا » ، ثانيةً إلى تذليل الصّعاب من حوله ، فاستطاع بمَعُونتها أن يرتفع إلى سَطْح الماء ، وأن يَبْتَعِد من خَطَر الصّخور ، وظلَّ يَسْبَح حتى وصل إلى مَصَبّ أحد الأنهار .

فتضرع « أوذيس » إلى النهر وقال :

— « رُحْمَاكَ أيّها النهر الجميل ! هَدِّئْ أمواجك والْطُف بي ، ومَهِّدْ لي سبيل النزول بضفافك ، فقد طال عذابي » .

رَقَّ النهر لِنَجْواه ، وأمر الأمواج أن تسكن فسكنَت ، وحمل « أوذيس » على صَفَحات مائه الصافي ، وأنزله ضَفَّةً من ضفافه .

وكان جسمُ صاحبنا النَّاجي من الغَرَق ، منتفخًا مُثْخنًا بالكُلُوم ، يسيل الماءُ المِلْح من مِنْخَرَيْه ، وكان متقطِّع الأنفاس يكاد يَسْقُط من الإعْياء ، وما هو إلاّ أن يَثُوب إليه رُشْدُه وحَواسُّه ، ويشْعُر أنه يمشي على الأرض الصُّلْبَة ، حتى يَطْرح وِشاحَ عروس البحر في مياه النهر ، فيحمله التَّيار إلى المصَبّ ثم إلى رُقْعَة البحر الواسع ، وتَنْشَق الأمواج بعد قليل عن عروس البحر ، فتلتقط الوِشاح ، وترجع به إلى مَقَرّها ، سعيدة بأن تعرِف أن « أوذيس » في مأمَنٍ من الأخطار .

وغَلَبَ الفرح وعِرْفان الجميل على فؤاد « أوذيس » فَرَكَع بين أعواد النَّبات النَّاجمة على ضِفاف النهر ، وقبَّل في شغفٍ وخشوع وجه الأرض التي نزَل بها .

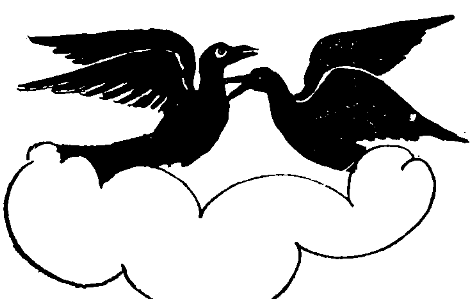
وما إنْ يَنْهَض من جَثْوَتِه ويتدبَّر أمْرَه ، حتى تستولي عليه مخاوفُ جديدة ، فَراحَ يشاور نفسه ويقول :

— « لو مكَثْتَ قُرْبَ النهر لمِتُّ من بَرْد الرّياح وصقيع

الصَّباح ، ولو صعَّدْتُ فى الجبل لما أمِنْت على نفسى غائلةَ الوُحوش الضَّارية تخرُج عليّ من مكامِنها وأكون لها فريسةً باردة » .

ومال فى آخر الأمر إلى اتِّباع الشّقّ الثانى من تفكيره ، فرَقِيَ إلى تلٍّ من التلال ، واتَّجه نحو شجرتى زيتون تشابكت أغصانُهما فتألَّف منها ملجأ كَثيف أمين .

فأعَدَّ لنفسه من يابس ورق الشجر فِراشًا يَفْتَرِشُه وغِطاءً يَلْتَحِف به ، ثم استلقى إلى الفِراش وتغطّى باللِّحاف الدّافئ العَطِر ، واستسلم إلى الرُّقاد ، فأرسلت إليه عندئذ الرَّبَّة « مينرفا » لذيذَ النُّعاس يُطْبِقُ جَفْنَيْه ، فنام ونَسِيَ مع الراحة والدّفء وسعيدِ الأحلام ما كان قاساه من حوادثَ وأحْداث .





٦

ليس في بلاد « الفياكيين » طُولاً وعَرْضًا ، مخلوقةٌ أجْمَلُ وأحْلَى من ابنة الملك ، إنها « نوسيكا » الشقراءِ الشَّعَر البيضاء البَشَرَة . ففي هذه البلاد ألقت العاصفة « أوديس » . فبينما كان يَغطُّ في نومه الهنيء ، فوق فِراشه الوَثير المصنوع من وَرَق الشجر ، ذهبت الرَّبَّة « مينرفا » إلى قصر الملك ، ودخلت خِدْرَ « نوسيكا » ، وهتَفتْ بها قائلةً في حُلْمٍ سعيد لذيذ :

— « اطلبي من أبيك الملك مركبةً يَجرُّها جوادٌ فاره، واذهبي بها إلى ظاهر المدينة فإلى النهر، واغسِلي هناك ما ترتْدِين من مَلْبَس ووِشاح».

واستيقظت « نوسيكا » على شُعاع الصَّباح ، وبوحْيٍ من حُلْمِها السَّعيد ، ذهبت تَلْقَى أباها ، فوجدته في البَهْو الكبير يتأهَّب للخروج، ووجدت أمها جالسةً تَغزِل بعضَ الصُّوف بِلَوْن الأرْجُوان ، فاقتربت الأميرة من والدها وقالت له :

— « أبتَ العزيز ! أترْضى أن تُعِيرني مركبةً من مركباتِك ذاتِ الدَّواليب القويَّة لأنقُل بها إلى النهر جميعَ ملابسي ، ولأنقل بها أيضاً ملابسك ، وأعيدها إليك ناصعةَ البياض كالثلج فتَلْبَسها نظيفةً نقيَّة في اجتماعات مجلس البَلاط ، وإني لأعْرِف كذلك أن إخوتي الخمسة يُحِبُّون أن يرتدوا نظيف الثياب والمَطارِف » .

فقال لها وهو يبتسم :

— « أعرْتُك المركبة والجواد ، فاذهبي يا بُنَيَّتي ومُرِي السُّوَّاس أن يُعِدُّوا لك ما أردت » .

واختار السُّوَّاس جَواداً أصيلاً مطهَّماً ، وقَرَنُوه إلى أجْمل مركبة يمتلكها الملك ، وكانت الملكة قد أمَرت بإعداد سَلَّة تحتوي على كل ما لذَّ وطاب من الزّاد الذي تُحِبه ابنتها وتُؤْثِره . حتى يكون لها ولوصِيفاتها منه طعامٌ شَهِيّ ، ثم صُفَّت الملابس والثّياب بدِقّة وعناية في المركبة ، ووُضِعَت فيها كذلك سَلَّة الزّاد ،

فلما فَرَغَ القوم من مُنَوَّع الإعداد ، اعتلَتْ « نوسيكا » مَقْعَد القِيادة ، وأمسكتْ بالسَّوْط والزّمام ، ومَسَّت الجواد بالسَّوْط مَسًّا رفيقًا ، فانطلق يجرى خَبَبًا بالمركبة ومن فيها .

وصلت المركبة إلى ضَفَّة النَّهْر غيرَ بعيدٍ من التَّل الذى رَقِيَه « أوذيس » ليلة أمس ، فخفَّت الوَصيفات إلى الجواد فحلَلْن رِباطه من المركبة ، وأطْلَقْنَه يَرْعَى العُشْب على طول الضَّفَّة ؛ ثم تقدَّمتَهُنَّ « نوسيكا » إلى النهر ، وعكَفَتْ هى ووصيفاتُها على غسل الملابس بمياه النهر الصافية ، ونَشْرِها فوق الصَّقِيل من حِجارة الضَّفَّة .

ولما فَرَغْن من عملِهِنَّ ، نزَلْنَ النهر لاهياتٍ ضاحكات ، يَسْتَحْمِمْن ويَعْبَثْن بمائه الزُّلال ، ثم خَرَجْنَ من الماء وجَلَسْن يتناوَلْنَ الطَّعام ، وخريرُ المياه يُشَنِّف آذانَهن بألحانه السَّاحرة . ونَهَضْن بعد ذلك يتلَمَّسْن الملابس فإذا هى مبلولةٌ لم تَجِفّ ، فقَرَّ قرارُهُنَّ على أن يقْضِين الوقت لاعبات بالكُرَة .

وانهَمكْنَ فى اللَّعِب ، وكانت كل واحدة منهنّ تتلقَّف الكُرَة من جارتِها ، وترميها إلى جارةٍ أخرى ، وهى تجرى وتَقْفِز وتُغَنِّى . .

وازدادتْ حَماسةُ اللاَّعبات ، وأخذْنَ يَرْمين الكُرَة رَمَيات قويَّةً عالية ، واتَّفَقَ أنْ ألْقَت « نوسيكا » الكرة إلى إحدى وصيفاتِها ، ولكن الوصيفة عجَزَتْ عن أن تتلَقَّفها فسقطت الكرة فى النهر ، وجرَفها

التيّار إلى البحر ، فصاحت الفتيات صيْحات عالية، ثم قهقهن ضاحكات ، فحمل النسيم صدى ضحكهن إلى « أوذيس » وكان لا يزال نائمًا فوق فراشه الذى صنعه من ورق الشجر ، فصحا من نومه وخرج من كهفه الذى اصطنعه تحت ظلال شجرتى الزيتون ، واقتطع بعض الأغصان فجعل له منها حزامًا بعد إذ كان قد ألقى بثيابه فى البحر ، حين أشرف على الغرق ، وانحدر إلى حيث كانت « نوسيكا» ورفيقاتها . .

ولم يكن مظهره ذاك إلا مظهر رجل متوحش ، فلما أبصرته الفتيات ، تملكهن الخوف ، وهربن من وجهه وهن يصرخن مذعورات ، فاختبأ بعضهن وراء صخور الشاطئ ، وجرى بعضهن الآخر إلى ناحية البحر . أما « نوسيكا » فقد كانت على جانب عظيم من الشجاعة ، فلم تهرب ، على ما كان يبدو على هذا الرجل المجهول من منظر متوحش ، بوجهه الذى جف عليه الزبد فاستحال إلى قطع من الملح ، وبشعره الأشعث ، ولحيته الكثة الشائكة ، بل إنها اطمأنت إليه عندما رأته يقف على بعد مسافة قصيرة منها .

وشاء « أوذيس » أن يبدد مخاوفها ، فقص عليها بصوت عذب رقيق ، كيف كاد يغرق ، وكيف قذفته خاتمة المطاف إلى تلك الربوع ، وسألها أن تدله على طريق المدينة وأن تمنحه من جود راحتها قطعة قماش يتستر بها فقالت له « نوسيكا » :



– « لا يَلُومُ عليكَ أيُّها الغريب أنك رجلٌ شرير ، لقد سألتني أن أدُلَّك على طريق المدينة ، وأن أهَبَك بعض الثياب فحُبًّا وكرامة ... واعْلَمْ أنك في بلاد " الفياكيين " وأن أبي هو مليكها » .

ثم نادت وصيفاتِها وقالت لهنّ :

– « لماذ هربْتُنَّ من وجه رجل رأيتُنَّه ؟ أحَسِبْتُنَّه عدوًّا وما هو إلا رجل مِسْكين نَجا من خطر الغرق ؟ هيًّا أعْطِينه بعضَ الثّياب وقدّمْن له طعامًا وشرابًا » .

فخرجت الفَتَيات من مخابئهِنّ ، ووضعن قرب « أوذيس » بعضَ الثّيابَ التي جففَتْها الشمس ، فأخذها شاكراً ، ومضى إلى جانب النهر فغاص في الماء الصافي ، ونَزَع عن وجهه وجسده قِطَع المِلْح ، ونظَّف شعره ممَّا علِقَ به من زَبَد البحر ، ثم خرج وارْتَدَى ثوبًا جميلاً من ثياب شقيقٍ من أشِقَّاء « نوسيكا » وعاد إلى حيثُ كانت الفتيات ينتظرنَه .

وأمَرتْهُنَّ « نوسيكا » ، أن يُقَدّمْن له الطّعام فامتثَلْن الأمر ، ودعته « نوسيكا » إلى تناوله ، فلَبَّى الدعوة في شَهْوَة فائقة ، وكان قد مضت عليه عِدّة أيام لم يَذُق فيها طعامًا . فلما شَبِعَ وارْتَوَى ، طوت الفتيات الثياب ووضَعْنَها في المركبة ، وجئن بالجواد فقَرَنَّه إليها ، ثم تأهَّبْن للرجوع ، فاعتلت « نوسيكا » مقْعَدَ القيادة وقالت تخاطب « أوذيس » :

– «اتبَعْنِي فى صُحْبة وصيفاتى ما دمنا فى الرّيف ، ولكن يَحْسُن أن نفترق إذا وصلنا إلى أبواب المدينة ، فلو رآنا الناس معًا ، لما تورّعوا عن أن يقولوا : [ها هي ذى "نوسيكا" تعود فى صُحْبة خطيب ، أفتحتقر شأنَ شَبابنا الذين يَودُّون أن يتزوّجُوها ؟ أفيكون هذا الذى جاءت به رجلاً نجا من الغَرَق أم إلهًا نزل الأرض ليتخذها زوجة له ؟] فرجائى إليك ألا تتبعنى فى أنحاء المدينة تجنُّباً لمثل هذا من أقاويل السّوء ، ومن تندُّر الملاّحين العاطلين ، ولسوف ترى عند أبواب المدينة غيلاً من شجر الصَّفْصاف ، تُحيط به رِياضٌ نَضِرة ، فامْكُث عنده رَيْثَما أصِل إلى القصر ، فإن شئت أن تذهب إليه بعد ذلك ، فاسأل أىَّ غُلامٍ تلقاه يدلّك على الطريق ، وعندما تَبْلُغ صَحْنَ القصر ، فادخل على الفَوْر الحجرة التى تجلِسُ فيها أمّى ، فسوف تلقاها مشغولةً بغَزْل صوف الأرجوان ، على مَقْرُبة من الموقد وحولها وصيفاتها .. . إن عرش أبى يقوم إلى جانب عرش أمّى ، فلا تتوقّفْ عنده بل انطرِحْ عند قدَمَىْ أمّى ، فإذا شمَلَتْك بعَطْفها ورعايتها ورَثتْ لحالك فتوقّعْ أن يُوَفّر لك أبى كلّ ما تَبْغِى وتحتاج إليه فى سبيل الرّجوع إلى بلدك » .

ثم لَمَسَتْ « نوسيكا » بسَوْطها ظهر الجواد ، فمضى ينتهب الأرضَ انتهابًا إلى المدينة ، مبتعداً من نهر اللجَيْن ، ووَسْوَسَة الزّهر ، ورمال الضّفة الذهبيَّة .

وعند الغُروب ، وصل « أوذيس » ووصيفات الأميرة إلى غِيل الصَّفْصَاف القائم وسطَ نضيرِ الرّياض ، فتوقّف عنده ريثما تصِل « نوسيكا » إلى القصر .

وما إنْ يَسْمَع أشقّاء « نوسيكا » وَقْعَ سَنابِك الجواد يضْرِب بها الأرض عند مَدْخل القصر ، حتى يَخِفّوا إلى استقبالها ، ويُفْرِغوا المركبة ممّا تحمِل من ثياب ، ويَعْهَدوا في الجواد إلى السُّوّاس . أما «نوسيكا » فقد ترجّلَتْ خفيفةً رشيقة ، ومضت إلى جَناحها من القصر ، فرحّبَت بعَوْدَتِها مربيتها العجوز ، وأوقدت لها الموقِد ثم أعدّت لها طعام العَشاء .

ومَكَثَ « أوذيس » ساعة في غِيل الصَّفْصاف ، يُمَتِّع ناظرَيْه بما حوله من نَضِير الغِراس ، حتى إذا استقرّ في خاطره أن « نوسيكا » لا بُدّ أن تكون قد بلغت القصر ، تابَعَ سيرَه وانتهى به إلى دخول المدينة . ولشَدّ ما أُعْجِبَ بأسوارها العالية ، ومِينائها الجميل المزدَحم بمختلف السُّفُن ، وبَلَغ العَجَبُ منه مُنْتهاه عندما وصل إلى قصر الملك ، ورأى أسواره مصنوعة من الفولاذ ، ثم استطاع أن يَسْتَرِق النَّظَر من فَتْحَة بعض الأبواب إلى داخل القصر ، فخُيِّل إليه أن الشمس تتألّق فيه ، وأن الجُدْران مبنيّة من أشعّتها ، ولاحَ له كذلك رَفرَفٌ أزرقُ جميل ، ممْتَدّ على طول السقوف ، وكلما أمْعَنَ في التَّحْديق والتَّدْقيق ، بدا له ما يُثير الدَّهَش والإعجاب . فالأبواب من ذهب ، ومداراتُها

من فِضةَ ، وعَتَباتُها من نُحاس ، ومَزالِيجُها من خالص العَسْجَد ، ولَمسَح فيا لَمتَنح ، بَهوْاً كبيراً يَغُصّ بتماثيل رجال وأنصاب حيوان ، صنِعَت من الذهب ، وحَمَل كلٌّ منها شُعْلَةً مُوقَدَة .

وكان يُحيط بالقصر بستانٌ أنيق ، نَمَتْ فيه أشجار الكُمَّثْرَى والرُّمَّان والتُفَّاح تتلألأ ثمارها بلون الذهب والعقيق ، وتَتَوالى مع مَدار السنة فى هذا البستان العجيب ، هذا إلى ما يحويه من كُروم العِنَب والتين ، وثمَرُ كلٍّ منها أحْلَى من العَسَل .

وقف « أوذيس » إزاءَ هذا البَهاء والجَلال مَدْهُوشًا مَشْدُوهًا ، ولكنه رَجَع لنفسه بعد قليل ، وجَرَى إلى الحُجْرة التى جلست فيها الملكة تَغْزِل فى ضوء الموقِد صوفَ الأرجوان ، فارْتَمى على قدَمَيْها ، وقَبَّلَ رُكْبَتَيْها ، وأذْهَلَ الحضور هذا الموقف فلَزِموا جانب الصَّمْت . وقَطَع « أوذيس » حَبْلَ هذا الصَّمْت وقال :

— « أيتها الملكة العظيمة ! لقد اجتزتُ المهالك وركبتُ الأخطار حتى وصلتُ إليك ،فانظرى إلىَّ تَجِدِى رجلاً قاسى من العَذاب والتَّبْريح ما لا يُطاق ، وحَكَمَ عليه الزّمن بأن يظَلَّ مدّة طويلة بعيداً من وطنه ،فتفضَّلى ومَهِّدِى لى سبيل الرجوع إليه تُحقِّقِى لى قَصِيَّ الرَّجاء » .

وبعد أن أدْلى « أوذيس » بمُلْتَمَسه ، ذهب يجلِس قرب الموقِد فلم يَنْبِس أحدٌ من الحاضرين بِبِنْتِ شَفَة .

وتناول ملاك « الفياكيين » الكلام فقال :

— « عزيزٌ علينا ، والحقُّ يُقال ، أن يَجْلِس هذا الغريب على رَمادِ الموقدِ جِلْسَةَ المتوسّل الشّقيّ » .

ومالَ على « أوذيس » وأنْهَضه ، وطلب إلى أحد أبنائه أن يُخْلِيَ له مقْعَدَه ، ثم أمَرَ الوصيفات أن يأتين بإبريق من ذهب ، وطَسْتٍ من فضّة ليغسِل الغريب فيه يدَيْه ، فتمّ له ما أراد .

ونَعِمَ القوم بعد ذلك بمأدُبَة فاخرة ، حوَت أطايب المأكل والمشْرَب ، وكان الضيف الغريب واسطة العقْد فيها ، فلَقِيَ من رجالات القصر جميلَ التَّرْحاب والحفاوة طولَ مُدّة المأدُبة ، حتى ارفَضّ السَّامِر ، وانصرف كلٌّ إلى داره .

وكان الملك قبلَ انفضاض الحَفْل ، قد وَعَدَ « أوذيس » بأن يَضَع تحت إمْرَتِه كوكبة من الحَرس تؤمّن له العَوْدَةَ إلى وطنه .

وعندما انصرف المدعوُّون ، سألت الملكة « أوذيس » قائلة :

— « هلاَّ أخبَرْتَنا غيرَ مأمور من أين حَصَلْت على ما ترتدى من ثياب ، فإنى لأرَى فيها قُماشًا نسَجْتُه أنا نفسى » .

فقصَّ عليها « أوذيس » قصّة أسْرِه فى جزيرة « كالبسو » ، ورَوَى لها كيف هرب منها وكيف فَقَدَ طَوْفه فى أثناء العاصفة الشديدة التى هبَّتْ عليه ، وكيف استطاع أن يَهْبِط إلى بلادها ، وأن يُسْعِدَه حُسْنُ الطَّالع بلقاء « نوسيكا » ! !

وكانت الوصيفات فى تلك اللحظة ، قد فَرَغْنَ من إعْداد

حُجْرة للطَّارِق الغريب ، وهَيَّأن له فيها الفِراش الوثير ، والأغطية النَّاعمة الأرجوانية ، ودعَوْن « أوذيس » إلى أن يأخذ قِسْطَه من الراحة .

ما أحْلَى النَّوْمَ فى عين المسافر التَّعِب !

وما كان أسْعَدَ « أوذيس » بما يحفُّ به من راحة ومُتْعة ! فلا عواصفَ جامحة ، ولا أمواجَ هائجة ، ولا برد ولا جوع .. إنه ينام ناعمًا بدِفْء الفِراش واللِّحاف ، فلا زئير موج يُصِمّ مِسْمَعه ، فكل شيء هادئ فى غُرَف القصر ، وما أجمل اللهب يضطرم فى المواقد وينعكس ضوءه على الزرازف الزرق فتعكسه هى على جدران الفولاذ أشعة من ذهب .

وفى اليوم التالى، أقام الملك حَفْلاً كبيراً احتفاء بضيفه « أوذيس » تبارَى فيه الأبطال فى كل صِنْف من أصناف الألعاب الرّياضيّة ما بين مُصَارعة ومُلاكَمة ، وعَدْو وقَفْز ، وما إلى ذلك، وأظْهَر كلٌّ من البَراعة والمَهارة والقوّة والبأس ، ما استَحْوَذَ به على قُلوب المتفرّجين ، ولقد أبْلَى أشِقَّاء « نوسيكا » البَلاءَ الحسَن فيما خاضُوه من مباريات ، وبَرَّزُوا فيها على مُنافِسيهم . على أن « أوذيس » كان صاحبَ القِدْح المُعَلَّى فى مباراة رَمْىِ الأثقال التى اشترك فيها ، فقد تمكّن من أن يرمى حَجراً ثقيلاً جدًّا ، تجاوز به الحدّ الذى بَلَغَه منافسوه .

وأعْقَبت الحَفْلَ الرّياضى وليمَةٌ فَخْمَة ، غَنَّى فيها مُطرِبو الملك ، وأشادوا بفَتْح « طروادة » وببسالة « أوذيس » .

فعمل الغناءُ فعلَهُ فى قلب « أوذيس » ، وجاش شعُوره ، وانحدر الدمعُ على خدَّيه ، فلم يلمح غيرُ الملك حزنه وتأثره ، فسأله عن السبب ، فروى له قصته وأحداثه منذ أن رحل عن « طروادة » ، وكشف له عن حقيقة اسمه .

وفى نهاية المأدُبَة ، قدَّم الملك والملكة ورجالاتُ البلاط إلى « أوذيس » ثمينَ الهدايا ، وكانت هدية الملك سيفًا جميلاً وشّى مقبضه بنجوم من الفضّة . أمَّا « نوسيكا » فلم تُهْدِ له شيئًا نزولاً عند عُرْف القوم وعاداتِهم ، غير أنها حدّقت فيه طويلاً ، وكأنّ نظراتِها تقول له فى صراحة ووضوح ، إنها تراه أجملَ الأبطال وجهًا ، وأعظمَهم شأنًا ، وعندما همّ بالانصراف خاطبته قائلة :

— « وَداعًا أيّها الغريب النبيل ! اذكرْنى أحياناً إذا وصلت إلى بلدك » . فقال لها « أوذيس » :

— « سأذكرُكِ ما دام فىَّ عِرْق ينبض ، وأذكر أنك أنتِ التى أنقذتِ حياتى يا "نوسيكا" » .

وفى فجر اليوم التالى ، توجّه « أوذيس » إلى سفينة راسية على مقربة من الساحل تصحبه كوكبةٌ من الحرس ، وقد حملوا الهدايا ، السَّنيَّة التى قُدّمت له ، فوضعوها على ظهر السفينة فى عنايةٍ بالغة ، ثم فرشوا فوقه بساطًا جميلاً استلقى « أوذيس » متمدّداً عليه .

وتمّ الاستعداد للرحيل ، وتحرّكت السفينة ، ثم أخذت تشقّ

العُباب فى رَوْعَةٍ وجَلال ، وطَرِبَ « أوذيس » لِسَماع أصوات المجاذيف وهَمْهَمَةِ الماء حولَ صَدْر السفينة ، كأنها تقول له إنه سائرٌ فى طريق « إيتاكا » حيث تنتظره أفراحُ العودة . وما عَتَّمَ « أوذيس » أن سَكِرَ بِراحِ تلك الألحان ، فاستغرق فى سُبات عميق .

وسارت السفينة سَيْراً حَثِيثًا فى البحر الهادئ الوَادع ، تُمَهِّد لها سبيلَ الانزلاق مجاذيفُ تحرِّكها سواعدُ قويَّة ، وما زالت تُمْعِن فى السَّيْر إلى غايتها ، حتى لاحت « إيتاكا » للناظرين مع لألاء الصَّباح .

فأرْسَى الملاَّحون السفينة فى الميناء ، وكان « أوذيس » لا يزال يغطُّ فى نومه، فحملوه فى حَذَر وعناية ، وأنزلوه بسَفْح شجرةِ زيتون فِضّية الورق ، ثم أنزلوا كنوزه وهداياه ووضعوها إلى جانبه وتركوه نائمًا .

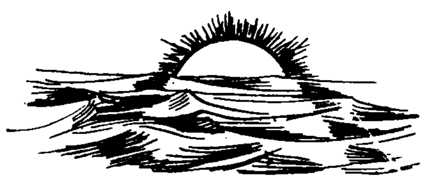
وبينما كان « أوذيس » مستغرقًا فى النوم ، نشرت الربَّة « مينرڤا » حوله ضَبابًا كثيفًا ، فلما استيقظ من رُقاده تطلَّع إلى ما كان يَألَف من بِقاع فأنكرَها ولم يعرِفْها ، وبدَتْ له الطُّرُق غيرَ الطُّرُق ، والغاباتُ غيرَ الغابات ، كأنَّما كانت غريبة عليه ، وكان هو غريبًا عنها ، فقال متنهِّداً :

— « وَيْلى من شَقِىٍّ تاعِس ! لقد وعَدَنى " الفياكيون " بأن يُوصلونى إلى " إيتاكا " فها أنا ذا الآن فى أرضٍ مجهولة ، ولست أدرى أين أخبئ كنوزى حتى لا يَسْلُبَنى إيَّاها سُكَّان هذى البلاد ؟ »

واستَمرَّ يشكو من سوء حظه ومجهول مَصيره ، حتى لاحت له الرَّبَّة « مينرڤا » فى زِىٍّ سيدةٍ جميلة جليلة ، تبتسم عيناها الزَّرْقاوان عن

مَعْدِنِها السَّمْح الكريم ، وجاءت تجلسُ إلى جِواره بعد أن بدّدت سُحُبَ الضَّباب التى كانت تُخْفِى معالِمَ الأشياء عن عينيه ، ففاض قلبه بِشْراً وسُروراً حِين أيقَنَ أنه فى « إيتاكا » جزيرته المحبوبة ، فانكَبَّ إلى الأرض يُقَبِّل تُراب بلده .

وشملَتْ فرحتَه غِلالةٌ من الكآبة حين نفَضَتْ له « مينرڤا » أخبار « إيتاكا » ، وقصَّتْ عليه ما جرى فيها من حوادث فى أثناء غيابه الطويل ، وبَصَّرته بما يجب أن يفعله فى سبيل أن يَسْتَرْجع مَلِكته ومَمْلكته .





٧

ما أكْثَرَ الحوادث التى كانت جزيرة « إيتاكا » مَسْرَحَها ، منذ العَهْد البعيد الذى رحَل فيه « أوذيس » عنها ، وذهب يَخُوض غَمَرات القتال فى بلاد « طروادة » .

فقد نشأ « تليماك » الصَّغير وتَرعْرَعَ فى غِياب والده ، وأصبح فتًى يافِعًا فى عُنْفوان الشباب ، وكان كلَّما طالت غيبةُ والده ، زادَتْ هُمومُه وأشجانُه لاضطراب الأحوال فى مملكة أبيه .

كان جمالُ أمِّه الرّائع ، وثَرْوَتُها الطّائلة ، مَطْمَعَ الطّامعين ، فما من زعيم ولا كبير إلا مَنّى نفسه بأن يصبح زوجَ المَلِكة « پنلوب » ويغدو بذلك مَلِكَ البلاد وخليفة « أوذيس » فقد كانوا يقولون :

— « إن " أوذيس " لم يَعُدْ في عِداد هذا العالم ، و " تلماك " طفل غَرِير لن يَحُولَ دونَ آمالنا وأمانينا » .

ولقد بلغت بهم الجُرْأة والصَّفاقة أن ينتقلوا إلى قصر « پنلوب » نفسه ويُقيموا به طاعِمين شاربين من مؤن « أوذيس » ومخزونه ، ومَكَثوا على هذه الحال سنوات . وكانت وَقاحَتُهم في مِثْل جَشَعِهم سَواء بسَواء ، فكانوا يحاصرونها كل يوم بطلب الزواج منها ، غير مكترِثين لما يبدو عليها من حزن عميق وهمٍّ قاتل .

وشاءت « پنلوب » أن تُنْقِذ نفسها من هؤلاءِ الخاطبين فابتدعت وسيلةً تُبْعِدهم منها ، ذلك بأنها وضعت في بَهْو القصر مَنْسَجًا كبيراً جدًّا ، أخذت تَحيك عليه نَسيجةً دقيقة الصُّنْع . وكانت تقول لهؤلاءِ الطّامعين في يدها ، الطّامحين إلى ثَرائها :

— « إذا فَرَغْتُ من هذه النَّسيجة ، سَتَسْمَعُون مِنّي الجواب » .

وكانت في كل ليلة ، تَخْرُج من جَناحها في القصر ، متخفّيةً عن أعْيُن الرُّقباء ، وتَفُكُّ ما نسجَت في وَضَحِ النّهار ، حتى طالَ الأمَد وطالَ معه انتظارُ الخاطبين للجواب الموعود .

ومرّت السنوات طويلةً رَتيبة ، ونما معها في قلب الأمّ والابن حُزْنٌ

ملأ منهما الجوانح .

وبينما كان « تليماك » جالسًا ذات يوم عند باب القصر ، ينظر فى اشمئزاز وكراهية ، إلى جمهرة الخاطبين الذين كانوا متحلقين حول الموائد ، يأكلون ويشربون صائحين معربدين ، إذ وقف عليه رجل غريب ، يرتدى لباس المحاربين فى بلد بعيد . ولم يكن هذا الغريب إلا الربة « مينرفا » صاحبة العينين الزرقاوين ، وهى التى استرحمت الآلهة فسمحت بعودة « أوذيس » إلى بلده .

جاءت إلى « إيتاكا » وهدفها أن تقوى روح « تليماك » ، وتذكى فيه نار العزم والشجاعة ، ولكنها أقبلت إليه فى زى جندى ، ولم تقبل فى طلعة الربة الجميلة ذات الشعر الأشقر ، وصاحبة المداس الذهبى .

فرحب « تليماك » بالجندى الغريب ترحيبًا كريمًا ، وقاده إلى بهو القصر ، وخففه من سلاحه الثقيل ، وأجلسه على مقعد جميل مطعم بالفضة ، بعيداً من طغمة الضيوف الثقلاء المعربدين .

ونادى الخدم ، فمدوا السماط للغريب ، وأتوه بألوان شتى من لذيذ الطعام والشراب ، وكان الخاطبون فى هذه الأثناء ، يزدردون الطعام فى جشع ونهم ، ويتبادلون أوقح المزاح والنكات فمال « تليماك » على الغريب ، وقلبه يغلى بالسخط والغضب وقال له بصوت خفيض وهو يشير إليهم :

– «إن هؤلاءِ الرّجال الذين يبدّدُون أموال "أوذيس" يظنُّون أن عِظامه قد ابْيَضَّتْ تحتَ وابِلِ المطر في جزيرة بعيدة . آه لو استطاع أبي أن يَعُود ، إذنْ لَتهرَب هؤلاءِ الخَوَنة الجُبَناء حالما يَرَوْنه . فقُلْ لي أيّها الغريب ! يلوح أنك قادم من بلادٍ بعيدة ، أفلم تَلْتَقِ مرّة "بأوذيس" أبي العزيز ؟ » . فقالت له « مينرفا » :

– « إن أباك حيٌّ يُرْزَق يا فتى ، فلا يُخامِرْك أيّ شكّ في هذا ، ولكنه أسيرٌ في جزيرة نائية ضاربة في عُرْض المُحِيط ، فلا تَيْأس فقد يَلُوذ قريبًا جدًّا بالفرار ويعود إلى وطنه . . . فما أشْبَهَك به يا « تلماك » فقَسَمات وجهك هي قَسَمات وجهه النبيل ، ونَظَراتُك هي نَظَراتُه البرّاقة بمخايل العِزّة والكرامة » .

فشَدّ هذا الكلام من عزيمة «تلماك» ، ونَفَخ فيه روحَ الشجاعة ، فراح يُفْضِي إلى « مينرفا » بما قام به أولئك الخاطبون من أعمال مُنْكَرَة ، ويَصِف لها بُخْلَهم وصَفاقَتَهم .

ثم أمدّت الرّبّة « مينرفا » الفتى « تلماك » بنصائحها فقالت له : إن عليه أوّلاً أن يدعو مجلس الزّعماء ليُصْدروا أمرهم إلى هؤلاء الخاطبين بمغادرة القصر والانسحاب إلى دُورِهم ، ثم حَثَّته أن يَعْمد ثانيًا إلى إعداد سفينة بعشرين مِجْذافًا تذهب إلى بلد سوف تُعَيِّنه له وتتقصّى هناك أخبار أبيه ، فلا بُدّ أن تَرْجع منه بأنباء تسرّه ، وختمت حديثَها قائلة :

– « إنك فتى جميل قويّ ، فاجعل بسالتك تعدل جمالك ، ومكّن الناس من أن يتحدّثوا عن أعمالك الباهرة فى مستقبل الأيام ، وكن لهم موضعَ إعجابٍ وموضوعَ ثناء » . فقال « تليماك » :

– « إنك لتحدّثنى حديث الأب لابنه ، وهيهات أن أنسى هذا الحديث ، وأن أغمط لك هذا الفضل » .

ثم رجا من « مينرڤا » أن تمكث عنده ما استطاعت . وألحّ عليها أن تقبل منه بعض الهدايا ، فى حين أنها هى التى أهدت له أثمنَ ما يُهدَى للفتى المقدام ، بعد إذ ردّت عليه قوّته وشجاعته ، فلما غابت عنه شعر « تليماك » أنه استبدل بإهاب الشّاب الخجول الهيّاب أجلادَ رجل قويّ باسلٍ شجاع .

وكان الخاطبون منهمكين بملاذّهم وصخبهم ، فلم يلتفتوا إلى غُدُوّ الجندى الغريب ورَواحه ، بل كانوا مأخوذين بغناء بعض المغنّين يُنْشِد ويَعْزِف على قيثارته أناشيد حلوة شجيّة تُشيد ببطولة الإغريق فى حرب « طروادة » ، وترحّب بعودة الأبطال إلى أهلهم وبلادهم .

وسمعتْ « پنلوب » غناءَ المغنّى وعزْفه ، فنزلت من جناحها فى القصر وتردّدت قليلاً عند عتبة البهو ، ثم قاطعت المُغنّى وهى تنشج وتنتحب وقالت :

– « كُفّ عن الأغانى التى ترحّب بعودة الأبطال من "طروادة"

ولا تُرَجّعْها على سَمْع امرأة ما زال زوجُها غائبًا، وما زالت تنتظر إيابه ». فعَلَّق « تليماك » على كلامها وقال بصوت جَهْوَرِيّ قويّ ما كانت لتعرفه فيه :

— « أمّاه لا تلومى هذا الشاعر على غنائه ، فإن لم تسمح الآلهة حتى الآن بعودة" أوذيس" إلى بلده ، فما سَمَحَت أيضًا بهلاكه ، فلْنَدَع اليأس جانبًا ، ولننتظرْ رجوعه بإذن الآلهة ، فعودى إلى مَثْواك ، ودَعِينى أدبّر شؤونى ، فأنا الآن سيد هذا القصر والآمر الناهى فيه » .

ثم وجّه كلامه إلى الخاطبين بمثل هذه اللهجة القوية دون ارتباك ولا اضطراب وقال :

— « لكُمْ أن تُقيموا الولائم هذا المساء ، ولكن لا ضجيجَ ولا فوْضَى ، وعليكم غداً أن تحضُروا مجلس الزُّعماء الذى سأدعو إلى عَقْده لنُقرِّ أحد أمْرَيْن : إمّا أن أكون سيداً فى قصرى ومملكتى ، وإما أن تستمرُّوا فى تبديد أموالى وإنكار سلطانى » .

قُوبِل خطابُ « تليماك » بسَيْل من صَيْحات الغضب وقوارص الكَلِم ، ولكنه لم يَحْفِل بها ولا أعارها أىّ جانبٍ من اهتمام، ولما أوَى الخاطبون إلى مخادِعهم ، سار إلى مِخْدَعِه تسبقه إليه مربّيته العجوز ، حاملة بيدها مِشْعلاً يُنير له الطريق ، وانتظرت حتى خلَع رداءه فطْوَتْه وأزالت منه التجاعيد ، وعلَّقَتْه على المِشْجَب ، وخرجت تاركة « تليماك » ملتفًّا بغِطاء كثيف من الصُّوف ، غير أن النُّعاس امتنعَ

عليه طويلاً ، وحجبته عن أجفانه نصائح « مينرفا » وقد ظل يتذكرها واحدة بعد أخرى .

واستيقظ « تلماك » على صحوة الفجر ، فارتدى ثوبه ، وتقلد سيفه ، وأمر المنادين بدعوة الرؤساء إلى الاجتماع ، فلما اكتمل عددهم نزل إلى البهو وفى يده رمح من الفولاذ ، وكانت « مينرفا » قد أضفت على قسماته من البهاء والصباحة ما جعله يشبه إلهًا من الآلهة ، حتى إن شيوخ الرؤساء فسحوا له فى الطريق وهو متجه إلى عرش أبيه .

فقال رئيس من الرؤساء الأجلاء :

— « إن هذا المجلس لم يعقد منذ أن رحل الملك "أوذيس" إلى "طروادة" وإنى لأرى أن الذى دعانا إلى عقده هو لا شك رجل نبيل عظيم ، نتمنى له الخير والتوفيق ، ونسأل الآلهة أن تحقق له قصى الأمانى والآمال » .

ومثل هذه البداية زادت « تلماك » حمية وشجاعة ، فقد كان يتقد حماسة لأن ينفض ما يجيش فى صدره من شجون ، فتكلم فى قوة واندفاع ، ووصف ما يخالجه من حزن على غياب أبيه ، واستنكر خيانة الخاطبين وصفاقتهم وولائمهم المنكرة ، وبين للمجتمعين كيف بددت أمواله ، وأهينت أمه ، ولما لم يعد يطيق الصبر على ألمه وغضبه ، أنذر جمهرة الخاطبين بمغادرة القصر .

وخيم الصمت على المجلس حتى قطع حبله أحد الخاطبين

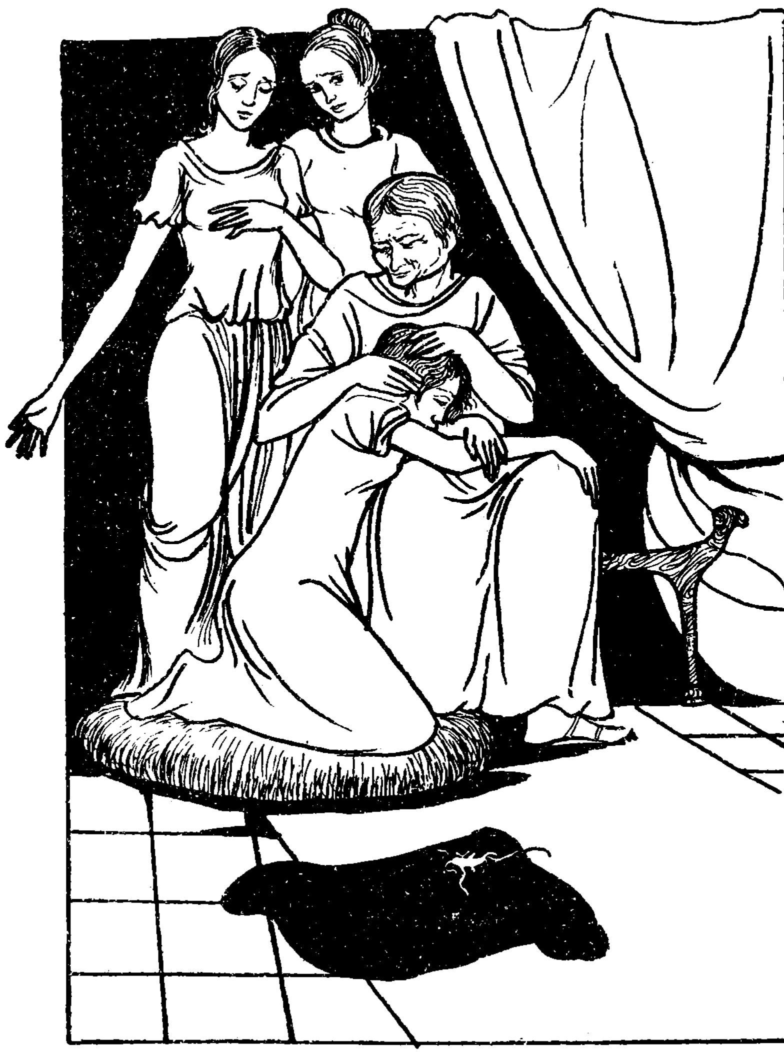
فقال :

– « إن الملوم فى هذا إنما هى الملكة "پنلوب" فقد ظلت سنوات تخدعنا وتقول لنا : " عندما أفرغ من نسيجى فسوف أعلمكم بمن اخترته منكم زوجاً لى " وها نحن أولاء ننتظر جوابها على غير جدوى ... ولقد علمنا الآن من إحدى الوصيفات أنها تفك فى الليل ما تنسجه فى النهار ، فيجب أن تكف عن هذا الخداع وتعلن لنا على من وقع اختيارها ، ولسنا بتاركين قصرها ما لم تصرح باسم الذى ترغب أن يكون زوجاً لها » .

وحاول « تليماك » أن يستدر عطف الخاطبين ، فرققت لهجته ولطف كلامه ، ولكنهم لم يستنيموا لوداعته فصاح فيهم :

– « إن تؤثروا أن تلتهموا ثروة أبى غير حاسبين للقصاص حساباً ، فاستمروا فيما أنتم فيه ، أما أنا فسوف أشهد عليكم الآلهة حتى يجزيكم « جوبتر » على أعمالكم جزاء وفاقاً ، فتنالوا على جرائمكم ما تستحقون من عقاب » .

وبينا هو مستمر فى الكلام إذ هبط من قمة الجبال نسران أخذا يحلقان فوق رؤوس الخاطبين ثم هجم كل منهما على الآخر فى غضب وشراسة ، وهو يحاول أن ينشب مخالبه الحادة فى عنق خصمه وجنباته ، حتى إذا انتهت المعركة بينهما ، أطلقا أجنحتهما للريح وغابا فى الأفق . فصاح أحد الرؤساء الشيوخ إزاء هذا الحادث الغريب وقال :



— « ليس هذا إلا فألاً يَرْمِز إلى عودة " أوذيس " والويل عندئذ للخاطبين فعلينا أن نكبح جماح هؤلاء الحمقى قبل عودة الملك ، خشيةَ أن نُساقَ نحن أيضاً معهم إلى السقوط والخِذْلان » .

فقاطعه الخاطبون فى حدة وغضب وقالوا :

— « عُدْ إلى منزلك أيها الشيخ الفانى ، وانْشُرْ نُبُوءاتك بين أطفالك ... إن " أوذيس " قد هَلَكَ ولا شكٌّ بعيداً من وطنه ، ليتك متَّ معه ، إذن لما وقفتَ بيننا تتفَوَّه بتُرَّهاتِك ، وتتملَّق " تلماك " استهداء لبعض عطاياه » .

وأضافوا فقالوا موجِّهين الخطاب إلى « تلماك » .

— « سنبقى فى قصرك ما دامت "پنلوب" تُرْجِئُ زواجها ، ولن تحول خُطَبُك بيننا وبين العيش الهانئ الرَّغْد فى ظِلال ميراثك » .

ولم ينتصر للفتى « تلماك » إلا رجلٌ واحد هو الحكيم « منطور » ، فقد أهاب بشجاعته ونَدَّد بالخاطبين وبما يرتكبونه من أعمال العُنْف ، كما عَنَّف الشعب على جُبْنه وخِيانته . غير أن خطبته لم تزحزح الخاطبين عن موقفهم وقرارهم . بل راحوا يُمْعِنون فى الاستهزاء بالفتى « تلماك » حين أخبرهم أنه يُزْمِع أن يُجَهِّز سفينة يَذْهَب بها إلى البَحْث عن أبيه . فصاحوا ساخرين :

— « سيزيدنا عَناءً فى اقتسام ميرثه فهو هالك لا محالة مثل أبيه » .

وارْفضَّ المجلس ، وعاد الخاطبون إلى مباهجهم فى القصر ، وسارَ « تليماك » إلى الشاطئ وجثَا على الرمل الرَّطْب وقال :

— « أيّها الغريب النبيل الذى جاء أمس يحدّثنى ، إنى لأعْرِف الآن أنك أحد الآلهة ، فأتوسَّل إليك أن تخبرنى كيف أستطيعُ الحصول على سفينة تنقلنى إلى البحار النائية بَحْثًا عن أبى . . . إنى فتى وحيد لا عون لى ولا سَنَد » . فتراءت له « مينرڤا » على الفور وقالت له :

— « كُنْ شُجاعًا وكن خير ابن "لأوذيس" العظيم ، فعَسيرُ الأمور غيرُ عَسِير على القلب الباسل ، فعُدْ إلى القصر وتغَلْغَلْ بين جَمْهَرَة الخاطبين وأعِدّ سرًّا زادَ السفر ، وعلىَّ أنا أن أوفّر لك سفينة من أفضل سفن "إيتاكا" وأن أزوّدها بأمْهَر الملاَّحين من أولى البأس والعزم » .

فاتّبع « تليماك » هذه النصائح ، وعاد إلى القصر ، وكان الخاطبون يُعِدّون العُدَّة لمأدُبة فاخرة ، ويذبحون الذَّبائح فى صَحْن الدار ، فلما رأوه مُقْبِلا إلى القصر ، استقبلوه بالسُّخْرية والازدراء وقالوا :

— « هو ذا "تليماك" الذى يريد أن يَعْصف بنا ، هو ذا الخطيب المِصْقَع ، والفتى المتعَجْرف ، هو ذا "تليماك" الهائل ! »

وقال شابٌّ منهم صَفيق جَرِىء :

— « إنكم لا تعرفون فيما يفكر وماذا يُدَبِّر . . . إنه سوف يَسْعَى إلى "إسبرطة" ويجىء منها بعِصابة من القَتَلة تنتقم له ، بل إنه سيعود

من أسفاره بسُمُوم ناقعة يَصُبها فى كؤوسنا ويقضى علينا جميعاً » .

فتخلّص « تليماك » من هذه الطُّغْمَة الشِّرِّيرة ، ومَرَّ بها نازلاً إلى القَبْو الذى تجمَّعت فيه كنوز أبيه ، فمن صناديقَ مُقْفَلة تحتوى على آنية من الذهب والفضّة وثمين الثياب إلى أكياس من الزّاد محشوَّة بمختلف الأصناف ، إلى دِنان مملوءة بالخمر والزيت ، وكانت أبواب هذا القَبْو مُقْفَلةً ليلَ نهار ، وكانت المربِّية العجوز هى الحارس الأمين على هذه الكنوز .

فطلب إليها « تليماك » أن تُعِدَّ له زاداً للسفر وقال :

ـ « عندما تأوى أمى الليلة إلى فِراشها ، فسأحْضُر إليك ، وآخذ ما أعدَدْت ، فقد نوَيْت أن أرحل على الفور بَحْثاً عن أبى » .

فلم تمالك المربِّية العجوز عن أن تَذْرِف سَخِينَ العَبَرات وقالت :

ـ « لا تسافِرْ يا ولدى فأنت ابننا الوحيد الذى نُحِبه ونَرْعاه . إن أباك " أوذيس " قد مات ، فماذا تستطيع له لو جُبْت البلاد وتقصَّيْت البحار ؟ ولعَلَّ سفرك يكون مَجْلَبَة للجديد من الكوارث ، ولعل هؤلاء الأشرار يغتنمون فرصة غِيابك فيُمْعِنوا فى الشَّرّ والأذى ، فلا ترْحَلْ وابْقَ إلى جانبنا ، فليس من الحكمة أن تُعَرّض حياتك للخطر على غير طائِل » . فقال « تليماك » :

ـ « هَوّنى عليك يا مربّيتى العزيزة ، فما اتّخذت أنا وحدى هذا

القَرار . . . إن الرَّبَّة "مينرڤا" هى التى أوْعَزَتْ إلىّ بأن أسافر ، فلا خوف علىّ إذن من سوء المصير ، فعِدينى يا عزيزتى ألاّ تُطْلِعِى أمّى على أمر هذا السفر ، حتى لا تَسْكُبَ الدَّمْع ولا تَذْبُل نَضارةُ وجهها الجميل » .

وكانت « مينرڤا » فى هذه الأثناء ، قد عَثَرت على السفينة المنشُودة فتنكَّرَتْ فى زىّ « تليماك » واستعارَتْها من صاحبها . ولما هَبَط الليل أشاعت النعاس فى جُنُون الحاطِبِين فغَرِقوا فى سُبات عميق . ثم قادت « تليماك » إلى الشاطئ فإلى السفينة التى أعدَّتْها له وقد تفرّق الملاّحون الأشداء فى أنحائها ، واسْتَقَل كلٌّ بمكانه من القِيادة فيها .

فشاعَ السُّرور فى وجه « تليماك » وأرسل بعض الملاّحين إلى القصر يأتونه بأزْواد السفر ، وما هى إلا ساعة وبعض ساعة حتى أقْلَعت السفينة و « تليماك » جالسٌ إلى جِوار « مينرڤا » ، والنسيم العليل يَنْفُخُ القُلُوع ويُثِير الخفيف الهيِّن من الأمواج ، ورُغاء الزَّبَد يتلاطَم تحت سُكَّان السفينة . وما زالت هذه الفُلْك تجرى مَجْراها على بحرٍ هادئ وديع ، حتى بدَّدت أشِعَّة الفجر حَلَكَ الظلام .

ولم تكد الشمس تلوحُ فى الأفْق ، وتنبسط أشِعَّتُها الذهبية إلى الغامِر والعامِر من هذا الكون ، حتى ألقت السفينة مراسِيَها فى بعض الشواطئ ، ونزلتْ منها « مينرڤا » يتبعها « تليماك » ، فاستقبلهما زعماء البلَد استقبالا كريمًا ، ولكنهم كانوا يَجْهلُون مصيرَ البطل « أوذيس »

بعد حصار «طروادة».

فعهدت «مينرفا» إليهم فى الفتى «تلماك» وتركته تحت ظلال رعايتهم وعنايتهم، ثم تحولت فجأة إلى صقر كاسر، وطارت سابحة فى الفضاء وعيون القوم تنظر إليها فى ذهول ودهش.

وملأت هذه الأعجوبة قلوب الحاضرين بالخوف والفزع، فأحاطوا «تلماك» بالحفاوة والإجلال، بعدما تبين لهم أنه مخلوق ترعاه الآلهة وتحميه.

وبينما كان «تلماك» يجوب الأقطار والأمصار، باحثًا عن أبيه لحظ الخاطبون غيابه فظنوه رحل يمتع نفسه بالقنص والصيد، إلى أن جاء إلى القصر يومًا صاحب السفينة التى استعارتها منه «مينرفا» وهى فى زى «تلماك» ووقف على القوم وقال متسائلاً:

— «متى يعود "تلماك" فأنا فى حاجة إلى سفينتى».

وعلم الخاطبون أن «تلماك» قد أبحر على أسرع سفينة فى الجزيرة، بصحبة عشرين شابًا من نخبة الشبان الأشداء، فأرغوا وأزبدوا، وتملكتهم سورة شديدة من السخط والغضب.

ثم هرعوا يستقلون سفينة قوية، وكمنوا بها فى مضيق عند مدخل ميناء «إيتاكا» وقد عزموا أن يقتلوا الشاب «تلماك» حين يعود إلى البلاد.

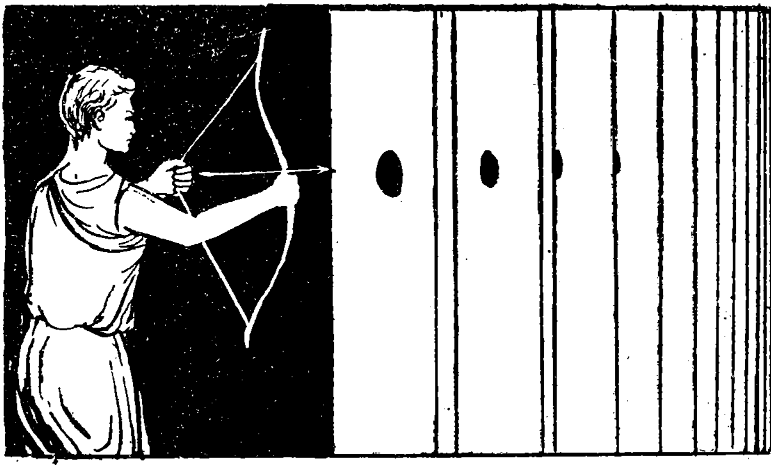
وعند ما علمت «پنلوب» بغياب ابنها، كاد قلبها يتمزق يأساً

وهَلَعًا عليه ، فبكت بُكاءً مُرًّا ، وانْحَنَتْ بالّلائمة على وَصِيفاتها .
وعنَّفَتْهُنّ على أن أخْفَيْن عنها أمرَ رحيله . فقالت لها المربّية العجوز :

– « لكِ أن تَحْرميني نِعْمَة الحياة إذا شئت يا سيّدتي ، فأنا وحدي مَنْ كان يعلم برحيله ، ولقد استحلفني سيدي " تليماك " أن أكتُم عنكِ الخبر حتى يجنّبكِ الحزن والأسى ، ولكن هدّئي من رَوْعكِ يا سيدتي ولا يستبدّ بكِ القلق والاضطراب عليه ، فالربّة " مينرڤا " تحميه وسوف تُعيده إليكِ آمنًا مطمئنًّا » .

فرطّب هذا الكلام خاطرَ « پنلوب » وسكّن بَلْبالَها ، ثم أدْرَكَها النّعاس فنامت ، وبينا هي غارقةٌ في نومها ، تراءَتْ لها « مينرڤا » في الحُلْم وأخبرتها أن « تليماك » سوف يَرْجِع سالمًا مُعافى ، فاستعادت « پنلوب » رباطه جأشها ، وانتظرت عودة ابنها الحبيب بقلبٍ مُفْعَم بالأمل والرّجاء .





٨

نعود الآن إلى الشَّاطئ الذى تركنا فيه « مينرڤا » تجاذب « أوذيس » أطرافَ الحديث ، وتَـرْوى له هذه الأحداث التى بسطناها فى الفصل السابق ممَّا كان يجهله ولم يخطُرْ له على بال ..

وكان أوّل ما اهْـتَـمـَّت به الرّبـّة « مينرڤا » هو أن تضَع فى مكانٍ أمين ، جميعَ الكنوز التى أتى بها « أوذيس » من بلاد « نوسيكا » وما حَفـَلَت به من ذهبٍ وفضّة وثياب مُوَشّاة ، فجمعتها كلَّها فى مَغارة مُظْلمة .

ولما انتهتْ من هذه المهمـَّة ، مسَّت ملاك « إيتاكا » بعَصاها

السِّحريَّة ، فسقط على الأثَر شعره الذهبي ، وغامَتْ نظراتُ عينيه ، وتجعَّدت قَسَمات وجهه ، وتقوَّسَتْ كتِفاه ، وارتخت مفاصل فَخِذَيْه ، وبدت عليه مظاهر شيخ فانٍ حطَّمَتْه الأيام ، وانقلبت كذلك ثيابه الأرْجوانِيَّة المطرَّزَة بالفضّة ، إلى أسْمالٍ يعلوها جِلْدُ أيِّل قديم العهد منحوت الشعر .. فقالت له « مينرڤا » :

— « اذهب أوّلاً إلى راعيك الأمين "إيماوس" الشيخ ، الضّارب هو وأغنامه بقمة الجبل ، والمقيم على عَهْدك والوفاء لك ، واسْمَعْ منه كل مايقصّه عليك ، وسأذهب أنا فى هذه الأثناء باحثةً عن " تليماك " راجعةً به إليك » . فقال « أوذيس » :

— « ما ضَرَّك وأنت العالمة بخفايا الأمور ، لو كنت بَصَّرْته بالعواقب ، ومنعته من أن يرتاد مَتاهات البحار بعيداً من أهله وذويه ! » فقالت « مينرڤا » :

— « اطمَئِنَّ بالاً واطْرَحْ جانب القلق عليه ، فالصّعاب مَصْنَعُ الرجال ، ولسوف أحْبِط كل شَرَك يَنْصُبه له هؤلاء الخاطبون المستهتِرون ، وأمكّنه منهم بنصرٍ مُبِين » .

وغابت « مينرڤا » بعد ذلك عن نظره ، وسار هو فى طريق الجبل .

وكان الراعى الشيخ يسْكُن كُوخًا مصنوعًا من أغصان الشجر المتشابكة ، تقوم على مَقْرُبة منه حظائر الماشية ، ويحيط بهذا كله سُور مبنيٌّ من جذوع شجر السِّنْديان .

وكان يُعين ذلك الشيخ على عمله ، ثلاثة من الغِلْمان يحرُسُون القُطْعان ، ويسُوقونها إلى المراعى ، وكان الحاطبون يسلبون منها كل يوم بضعة خِرْفان يُعِدّها لهم الطهاة ألوانًا شهيّة من الطعام ، ولقد استطاع الراعى الأمين مع هذا ، أن يَسْهَر على قُطْعانه ويحتفظ منها بالعدد الضَّخْم ، ويسهر معه عليها أربعةٌ من كلاب الحراسة ضارية العيون حديدة الأنياب .

اتَّجه « أوذيس » إلى حظائر الماشية وهو يصعد فى دربٍ وَعْرٍ من دُروب الجبل ، فأنكرتِ الكلاب منه زيَّه وأطماره ، ونبَحَت فى وجهه نباحًا شديداً ، وهَمَّت بالانقضاض عليه ، ولولا أن هُرع الراعى الشيخ إليه ، يحميه منها ويصدُّها عنه بسيل من الحجارة والوعيد ، لمزَّقَتْه إرْبًا إرْبًا . وبعد أن ابتعدت الكلاب من فريستها ، وهى أشدُّ جَلَبَة ونُباحًا التفت الراعى إلى « أوذيس » وقال له :

— « لو كانت كلابى قطَّعتك شِلْواً شِلْواً ، لما وجدتُ إلى العزاء عنك سبِيلاً ، فقلبى طافح بثقيل الهُموم والأشجان . . . إن سيِّدى المحبوب قد اضطرَّته الأحداث إلى أن يتنقل فى البلاد النائية ، فلا نَعْرف له مُسْتَقَرّاً ، وأنا هنا الحارس على قُطْعانه ، وأشَدّ ما يُحْزِننى أن أراها طعامًا لسواه » .

وقاد الراعى زائره إلى الكوخ ، وهو يحدّثه بمثل هذا الكلام ، وفَرَشَ الأرض بطبَقَة كثيفة من ورق الشجر ، غطَّاها بجِلْد ماعز

وَحْشِيّ ، ورجا منه أن يجلس فوق هذا المقعد المُرْتَجَل .

ثم خفَّ إلى الحظائر ، وانتقى منها حَمَلين ذبحهما وشَواهما ، وقدَّمهما ، إلى « أوذيس » وقدّم معهما شرابًا أحلَى من العَسَل .

وبينما كان « أوذيس » يأكل ويشْرَب مستردًّا قواه ، كان الراعى يقصّ عليه حوادث القصر ، ويصف له المآدب التى يُقيمها الخاطبون وعدد ما التهموه ويلتهمونه من خِرْفان ومَعز .

أصْغَى « أوذيس » إلى حديث الراعى فى صمت وسكون ، وهو يفكّر فى الوسيلة التى سيقتصّ بها من هؤلاء المتطفّلين الرُّقَعاء المنهومين . ثم رَجَع لنفسه وسأل محدّثه قائلاً :

— « ما اسم سيّدك ؟ إنى رجل كثير الترحل فقد أكون التقيتُ به فى بعض أسفارى » . فقاطعه الراعى وقال :

— « ما من صُعْلوك متشرّد ، يَنْزل بجزيرة " إيتاكا " إلاّ ذهب توًّا إلى سيدتى " پنلوب " وقصّ عليها الأكاذيب ، زاعمًا أنه سَمِع بأخبار سيّدى ، فتستقبله سيدتى استقبالاً حَسَنًا ، وتَطْرَح عليه مختلف الأسئلة ، ثم تَجْهِش بالبكاء منتحبةً على زوجها المفقود ، ولو منحك بعض الناس أيّها الشّيخ مِعْطفاً جديداً لاخترعتَ أنت أيضًا روايةً من الرّوايات ، وصدّعت بها سَمْعَها . . . إن سيّدى قد غَرِق لا محالة فى بعض أسفاره ، وهَيْهاتَ أن أجِدَ رجلاً مثله طيّب القلب نبيل الخِلال » . فقال « أوذيس » :

— « أقْسم لك أيها الصديق ، إن سيّدك سيعود ، في آخر هذا الشهر أو في الأيام الأولى من الشهر القادم سيرجع ويعاقب كلَّ مَنْ ازْدَرَى شأنَ زوجته المحبوبة وابنه العزيز » .

واستمرّ الحديث بينهما ممدودَ السَّبَب ، حتى عاد الغِلْمان الثلاثة من المراعى ، ولما هبَط الليل أعَدَّ الراعي طعام العَشاء ، وحرص على أن يختصّ الشيخ الغريب بأطيب قِطَع اللحم ، وعندما حان وقت النوم أعطاه مِعْطفًا ثقيلاً يتّقى به غائلةَ البرد ووَطأة الرياح ، وذهب هو ينام قربَ قُطْعانه حتى يحميها من هَجَمات اللصوص ووَثبات الوحوش .

وقبل أن يستسلم « أوذيس » إلى سلطان الكَرَى ، شكر الآلهة على أن احتفظت له بخادمٍ وَفِيّ مُخْلص مثل هذا الراعى .

وكانت « مينرفا » فى هذه الأثناء تجِدُّ فى البحث عن « تليماك » فلما عادت به إلى الجزيرة وبدأت سفينته تقترب من الساحل ، كان الظلام شديد الحَلَك ، فمرّت بالمَضيق الذى تكْمنُ عنده سفينة الخاطبين دون أن يراها أحد .

ونزل « تليماك » وفقًا لأوامر « مينرفا » بمكانٍ زاخر بالغابات ، وطلب إلى رفقائه أن يتّجهوا إلى الميناء ويُلْقُوا المراسى فيه .

وما كاد يطأ الأرض ورُمْحُه فى يده ، حتى أخذ يصعد فى الدَّرْب الوَعْر الذى يُفْضى إلى كوخ الراعى « إيماوس » .

وكان الراعي الشيخ و« أوذيس » منهمكين بإعداد طعام الإفطار ، فطرق مسمعهما وقع أقدام، فالتفت « أوذيس» إلى مصدر الصوت، فاكتحلت عينه بمرأى شاب وسيم ، فارع القوام ، أشقر الشعر ، برّاق العينين ، نبيل المظهر ، يتقدّم إليهما في خطوات تدل على العزّة والكرامة ، فقال « أوذيس » للراعي :

— « لا بدّ أن يكون هذا الشابّ صديقاً من الأصدقاء ، فكلابك ترحّب به ولم تقابله بالنّباح » .

فرفع « إيماوس » عينيه ، ووقع نظره على « تليماك » فسارع إلى لقائه وهو يصرخ من الفرح وقال :

— « خشيتُ ألاّ أراك ثانية يا نورَ العين ، فتعالَ وادخل الكوخ واسمعْ دقّات قلبي وهو يخفقُ سروراً وبِشْراً حين تطالع عيناي وجهك الصّبيح » .

وبعد قليل ، كان الرجال الثلاثة يتناولون ما تيسّر من طعام الإفطار ، ولقد أحاط « تليماك » أباه « أوذيس » بمظاهر الرعاية على جهله به ، وعلى ما كانت تبديه أطمار ذلك المتسوّل الشيخ من فاقة وبؤس ، فاختلجت جوانح « أوذيس » طرباً ، وسرّه أن ينضمّ صدر ابنه على مثل هذا القلب الكريم .

ثم طلب « تليماك » من الراعي الشيخ أن يطير إلى « پنلوب » ويبلّغها أنه عاد مشمولاً بالسّلامة والعافية ، وفي أثناء غيابه دخلت « مينرڤا »

الكوخ متوارية عن نظر « تلماك » ، فأشارت إلى « أوذيس » أن يخرج من الكوخ فخرج وقالت له :

— « حان وقت العمل ، وآن أن يعرفك ابنك » .

ثم مسّته « مينرڤا » بعصاها السحْرية فانقلب البطل إلى حاله الأولى ، واستعاد بَشَرَته الملوّحة بطلاء الشّمس والرّيح ، ولحيته المجعّدة التى تظلّل ذقنه ، وشعره المحلّق الذى يتوّج رأسه ، ولاح بفاخر ثيابه وإشراق وجهه كأنه منحدر من صُلْب الشمس .

وعاد إلى الكوخ بذلك المظهر الأنيق العظيم ، فحسِبه « تلماك » لأول وَهْلَة إلهًا من الآلهة فقال له « أوذيس » :

— « لست يا " تلماك " أحد الآلهة فإنما أنا أبوك الذى ظننته فى عداد الأموات » .

ثم سارع إليه يعانقه فى شغف وشوق ، مُطْلقًا لعَبَراته العِنان ، فسالت غزيرةً على خدّيه ، فى حين صاح « تلماك » صَيْحة الفرح بعد إذْ عرف أباه ، وذرَف هو أيضًا هَتِنِيء الدُّموع .

ومكَث الوالد وابنه متعانقَيْن طويلاً ، ثم قَضَيا النهار يتبادلان طريفَ الأحاديث ، وأخذا بعد ذلك يتشاوران كيف ينتقمان من أولئك الخاطبين المناكيد .

ورَجَع الراعى إلى مَقرّه بعد إبلاغ رسالته وعُنيت « مينرڤا » بأن تُعيد إلى « أوذيس » مظهر المتسوّل العجوز فروَى للفتى « تلماك » أن الخاطبين

قد عادوا متغيظين مُحْنَقِين بعد ما أخطأوه ، وأنهم آلَوْا أن يقتلوه .

فابتسم « تليماك » عند سماعه هذا الخبر ، وحرص هو وأبوه ألاَّ تَفْلِت منهما كلمة تُمِيط اللثام عن سرِّهما المكنون .

وفى فجر اليوم التالى ، التقط « تليماك » رمحه وقال للراعى وهو يتأهَّب للرحيل .

— « إنى ذاهب إلى القصر حيث تنتظرنى أمى ، فَقُدْ هذا العجوز إلى المدينة لعلَّه إذا استدرَّ فيها أكُفَّ المحسنين ، يجمع له بعض المال ، فيستعين به على معاشه » .

واستمرَّ « أوذيس » يُوهِم الراعى أنه ذلك المتسوِّل فقال :

— « إنك لَعَلَى صَواب ، فالتسوُّل فى المدينة أجْدى منه فى الريف ، فضلاً عن أن الريح العنيفة فى الجبال يسهل عليها تمزيق رَثِّ ثيابى ، ولسوف أسْلُك طريق المدينة حالَما تَطْلُع الشمس » .

وانحدر « تليماك » من الجبل إلى المدينة ، وذهب تَوًّا إلى القصر ، فما إن لمحته المربِّية العجوز حتى أخذت تردِّد صَيْحات الفرح ، فسمعتها « پنلوب » وهُرِعت إلى البَهْو الكبير ، فلما وَقَعَ نظرُها على ابنها قالت له والدُّموع تنسكب من مآقِيها :

— « ها أنت ذا قد عُدْت إلينا يا ولدى الحبيب ، ولَكَمْ خَشِيت ألاَّ أراك أبداً » . فطوَّقَتْه بذراعَيْها فى عِناقٍ طويل ، وقلبُها يكاد يُسْمَع خَفَقانه .

وتركها «تلماك» ترْوِى منه غليل الشَّوق ، ثم ذهب والرُّمْح فى يده وكلباه يتبعانه ، إلى القاعة التى يتجمَّع فيها الخاطبون ، فاستعانوا عند رؤيته بالرِّياء والنِّفاق ، وهبُّوا يرحِّبُون به أجملَ ترحيب فازدرى البطل الشاب تحيَّتهم ، والتفت إلى الحكيم «منطور» يَسْرُد عليه أنباء رحلته .

وكان «أوذيس» فى تلك الآونة يقترب من قصره فى زِيِّه الحقير حاملاً كيسَه العَتِيق على كَتِفَيْه ، وكان الناس إذا مرَّ بهم احتقروه ، وهزأوا به وبأطماره ، ولكنه كان يَكْظِم غيظَه وغضبه ، ويستمرّ فى سيره حتى وصل إلى أبواب القصر .

رآه «تلماك» فأرسل إليه بعض قِطَع من اللحم أكلها فى نَهَم وشَرَه . ثم دخل القاعة وطاف بالموائد يَسْتَنْدى أكفَّ الخاطبين ، فكان بعضهم يرمون له بالفُتات ، وكان بعضهم الآخر يَنْهَرُونه ويطردونه ، واحتدَّ واحدٌ منهم عليه ، فأمسك بمَقْعَد صغير وضَرَبه به على أمّ رأسه . فكَظَم «أوذيس» غيظَه ، وعاد إلى باب القصر ، وتخفَّف من كيسه الذى ملأه بالفُتات فوضعه على الأرض .

وأقْبَل فى تلك اللحظة متسوِّل آخر ، معروف فى «إيتاكا» كلها بصَفاقته وجَشَعه ، ومتعوِّد أن يستفيد من ولائم الخاطبين ، فأراد أن يطرُد «أوذيس» قائلاً له :

— «اذهب أيّها الشيخ فهذا المكان مكانى ، وإلاّ حطَّمْت رأسك



بقبضتي ، ونثرتُ أسنانك فوق التراب » .
وسرّ الخاطبين أن يشهدوا معركة تنشب بين المتسولَين ، فشرعوا يُثيرون أحدهما على الآخر غير أن المعركة لم تستمرّ إلاّ لحظةً خاطفة ، فقد كال « أوذيس » لغريمه ضربةً واحدة حطّمت فكّه ، ثم سحبه من قدميه إلى العتبة ، وأسنده إلى الحائط والدمُ يسيل منه وقال له :
— « امكُثْ هنا لتُخيف الكلاب التائهة والخنازير » .
سرّت هذه المعركة جمهرة الخاطبين ، فأغدقوا على « أوذيس » بقدْرٍ أكبر من فُتات وليمتهم ، ثم تفرّقوا عند المساء آوين إلى مخادعهم ، تاركين « تليماك » وحده مع « أوذيس » .
خلاَ الجوّ للأب والابن فأسرعا فى نزْع الأسلحة التى تزيّن جُدْران القاعة ، وجمعا ما كان عليها من سيوف ورِماح وحِراب وتُروس وخُوذات ، وأخفيا في قبْوٍ من أقبية القصر ثم أوى « تليماك » إلى مخدَعه .
وبقى « أوذيس » وحده فى القاعة يشاهد عدَداً من الخادمات يُنظّفنها من بقايا الوليمة ، وجاءت « پنلوب » إليها فى تلك اللحظة لتراقب أعمالهُنّ . فزادت الموقد حطباً ، وجلست قربه تستدفئ ، فلمحت « أوذيس » وظنّته أحد المتسوّلين ، فحدّثته حديثاً رفيقاً كلهُ حدَبٌ عليه وعطْف ، ولما رأته طاعناً فى السنّ ، مجهوداً متْعَباً ،

أمرت المربّية العجوز بأن تغسل له قدميه وتُعِدّ له سريراً ينام عليه .

وكان « أوذيس » قد ذهب إلى الصيد منذ سنوات طويلة ، فأثر وعلاً وبينما كان يُحاوره ويُطارده ، هجم الوَعْل عليه وضربه بقرنه فى ساقه ، فأحدث فيها خدشاً كبيراً، فلما راحت المربّية العجوز تغسل له قدميه ، لمست أثر الندبة فى ساقه ، فعرفت سيدها وارتجفت يداها من شدة الاضطراب ، فأفلتت الطست منها ، ثم أخذت تتفرّس فى وجهه طويلاً ، وما لبثت أن صاحت قائلة :

— « إنه " أوذيس " ! إن سيّدنا قد عاد أخيراً » .

فأشار « أوذيس » إليها بأن تلتزم الصمت فسكتت ، وكانت « مينرفا » فى هذه الأثناء قد حوّلت أفكار « پنلوب » إلى آفاق بعيدة فلم تسمع شيئاً . وقبل أن تترك « پنلوب» القاعة آوية إلى مخدعها التفتت إلى « أوذيس » وقالت له بلهجة حزينة :

— « أشعر ويا للأسف أنى أقترب من النهاية ، فعما قريب يذهب بى أحد الخاطبين بعيداً من هذا القصر ، ويفوز بى منهم من قد يتشبه "بأوذيس" بطل الأبطال وسيد الرُّماة .

أتدرى ماذا كان يفعل إذا أراد أن يتسلّى ؟ أترى هذه الأعمدة الاثنى عشر المثقوبة ؟ إنه كان يرميها بسهم واحد يخترقها جميعاً وينفُذ منها . ولقد قلتُ لجمهرة الخاطبين الذين يحومون حولى ، إنى سأتزوّج الرجل الذى يستطيع منهم أن يقوم بمثل هذا العمل البارع .

وعلى هذا فسوف أتبَع الفائز ، وأهجُر هذا القصر الذى عِشْت فيه أسعَد أيام حياتى مع خير الأزواج » . فقال لها المتسوّل :

— « لا تخشَى بأسًا أيتها الملكة ، فسوف يحضُر " أوذيس " المباراة ، وسيكون هو الذى يخترق سَهْمُه الأعمدة الاثنى عشر بِرَمْيَةٍ واحدة » .

وعادت « پناوب » إلى مِخْدَعها وهى تتمنَّى أن تتحقَّق نُبُوءة المتسوّل العجوز ، فهبَطت « مينرڤا » إليها ، وأغمضتْ لها أجفانها ، ووهبَتْها مع النعاس نِعْمة النِّسْيان .

وكاد « أوذيس » وهو يفكّر فى طرائق ثأره ، يقضى ليلةً ساهِدَةً مؤرّقة ، لولا أن وافته الربّة « مينرڤا » ، وأمرّتْ أناملَها القدسية على معاقد أجفانه .

وأقبَل الخاطبون فى اليوم التالى إلى القصر ، وأمطروا المتسوّل العجوز بوابل من شتائمهم وهُجْر كلامِهم ، فاغتاظ « تليماك » وتوعّدهم ، فما ازدادوا بوعيده إلا ضَحِكًا وسُخْرِية ، ولكن قطع عليهم استهزاءهم ومُزاحَهم الفَجّ ، صوتُ رجل غريب وقف عليهم وقال :

— « أرَى الليلَ يَهْبِط عليكم ويوشّحكم بغلالته ، وأرى هذه الجُدْران مصبوغةً بدمائكم ، وأسمع أنينَكم يتردَّد فى أنحاء هذا القصر » .

فأثارت هذه النُّبُوءة القاتمة فنون عَبَثهم ، فقَهْقَهُوا ضاحكين

ما شاء لهم الضحك وسلكوا قائلها في عداد المجانين .

وانقطع الضَّحك فجأة حين دخلت « بنلوب » القاعة حاملة قوساً كبيرةً ستكون الفَيْصَل في تحديد مصيرها ، فوضعتْها بين أيدي القوم ، وخفَّت راجعة إلى مِخْدعها ، وتذكارُ زوجها يملأ قلبَها ويُدْمِع عينيها .

وحاول الخاطبون ، واحداً بعد آخر ، أن يشدُّوا القوس جاهدين ما وَسِعَهم الجهد ، ولكن ذهبتْ محاولاتهم سُدًى ، فتوهموا أن جفاف خشب القوس هو السبب في إخفاقهم ، فعَمَدوا إلى تَطْرِيته ، ومسحوه بالدُّهْن السَّاخن فما ظَفِروا منه بطائل .

فنهض عندئذ « أوذيس » بأسْماله البالية ، ومزّق ثيابه ، وتناول القوس وشَدَّها في غير عَناء ظاهر ، فاهتزّ الوَتَر ، ورَنّ تحت أصابعه الفولاذية ، وانطلق منه السَّهْم يخترق الأعمدةَ الاثنى عشر ، ثم صاح « أوذيس » بصوت جَهْوَرِيّ قائلاً :

— « دَنَت الساعة التي يجب أن تُقام فيها مأدُبة الخاطبين يا " تليماك " ، لقد انتهت مباراة الحِذْق والمَهارة ، وبَقِيَ أن نَبْلُغ سِواها من الأهداف » .

وقبل أن يفيق الخاطبون من ذُهولهم ، رمى « أوذيس » واحداً منهم كان أكثرَهم تَبَجُّحاً ووَقاحة ، بسهمٍ اخترق عُنُقَه وأسال دمَه فسقط مِنْ مقعَده جُثَّةً هامِدة .

قابل الحاضرون هذا القصاص الأول بصَيْحات الاستنكار والحَنَق فدَوَّى فيهم صوت « أوذيس » مُلَعْلِعاً كالرَّعْد ، وقال وشَرَرُ الغضب يتطاير من عينيه .

— « ما كنتم تتوقَّعون أيها الكِلاب أن أعود . . . لقد هَدَرْتُم أموالى ، وأهَنْتُم زوجتى وابنى ، فها هى ذى ساعتكم الأخيرة قد حانت ، ولا مَناص لكم منها ولا مَفَرّ » .

فامْتُقِعت وجوهُهم ، واضطَّربت مفاصِلُهم خوفاً ورُعْباً ، وراحوا يطلبُون الصَّفْح والغُفْران ، ولكن لا رحمةَ فى يوم الثأر ، فانهالت عليهم السهام وأصابَ كلٌّ منها هَدَفَه .

وكاد النصر فى لحظةٍ من اللَّحَظات يَفْلِت من يد « أوذيس » فقد خان أحدُ الخدم سيِّدَ القصر ، وجاء بالسلاح الذى كان « تلماك » قد أخفاه فى القَبْو فوزَّعَه على الخاطبين .

وخاضت عندئذ « مينرڤا » غِمار المعركة ، ووقفت بجانب « أوذيس » وابنه تَنْفَحُهما بقوًى جديدة ، وتبُثّ الحَيْرَة والاضطّراب فى نفوس خصومِهما ، فازدادت المَعْمَعَة عُنْفاً واحْتِداماً ، وضاعف « أوذيس » ضَرَباته ، وصال « تلماك » صولَةَ الأسد الغَضُوب ، فتكدّست الجثث فى القاعة ، وسالت على جَنَباتها دماءُ الموتى ، ولم يشأ « أوذيس » أن يَحْقِن دمَ أحدٍ من غرمائه ، فانقَضَّ على مَن بَقِيَ حَيّاً منهم وأرداه قتيلاً ، وهكذا تمّ له النصر ، وأرْوَى غليل ثأره

وبغضائه ، وأنقذ القصر من ضُيوفه الأوْغاد .

وأقبلت المُربِّية العجوز على دَوِيّ الضَّوْضاء والجَلَبة وشَهِدت ما شَهِدت فملأت الجوّ بصِياح البَهْجة والفرح ، فقال لها « أوذيس » :

ــ « خلِّي عنك أماراتِ السرور ، فلا شَماتة في الموت ، وادْعِي الخادمات يَنزِلْن آثار المعركة ، ويَغْسِلْن الأرض والجُدْران » .

فانطلقت المُربّية إلى « پنلوب » تخبرها بما حدث قائلة :

ــ « سيّدتي "پنلوب" لقد عاد "أوذيس" ومات جميع الخاطبين » .

فقالت لها « پنلوب » :

ــ « أجُنِنْت يا هذه ؟ إني لا أصدّق ما تقولين » .

ولكنّها مع ذلك نَفَرَتْ من مِخْدَعها ، ونزلت إلى القاعة الكبرى ، فلمحت « أوذيس » مستنداً إلى أحد الجُدْران ، وهو ما زال في زِيِّه الرَّثيث ، فلم تصدّق أنه زوجها ، ووقفت عند عَتَبة الباب حائرةً متردّدة ، فصاح فيها « تلماك » .

ــ « ماذا بك يا والدتي ؟ أقُدَّ فؤادك من الحِجارة ؟ ألا تعرِفين أبي العزيز ؟ » .

ولكن « پنلوب » لم تكن تَرَى أمامها إلا متسوّلاً شيخًا أحْنَت الأيام ظهرَه ، ولوّث الدّمُ وجهَه ويديه ، فهبَّت عندئذ الرّبّة ذات العينين الزَّرْقاوَيْن تُشيع المَلاحة والجمال في قَسَمات « أوذيس » ، فاعتدلت قامَةُ البطل ، واستعاد شعرُه ولحيتُه تصفيفهما الجميل ،

والتمعت عيناه ببريق جديد .

فعرفته حينئذ «پنلوب» وكاد يُغْمَى عليها من شدّة الفرح ، ثم انطلقتْ إلى زوجها وهى تبكى ، وطوّقَتْه بذِراعَيْها ، وقبّلَتْ رأسه ، وبَقِيا متعانقين كأنهما غريقان حَطّا أخيراً على شاطىءٍ كريم ، بعد أن تقاذفتهما الأمواج مدةً طويلة .

وفى تلك الليلة ، لم يكن فى جزيرة « إيتاكا » كلها أسعد من « أوذيس » و « پنلوب » وابنهما « تليماك » فلا فراق بعد اليوم ولا أحداث ، وإنما هى أيام أصْفَى من النَّدَى ، تنتظر المحارب الشجاع الذى عاد إلى وطنه ، ووَصَل من مغامراته إلى خاتِمَة المطَاف .



رقم الإيداع		١٩٩٢ / ٧٢٢٩
الترقيم الدولى	977 – 02 – 3778 – 7	ISBN

١ / ٩٢ / ١٨٠

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

